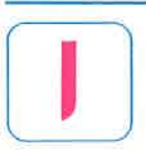
سلسلة أوراق من التاريخ

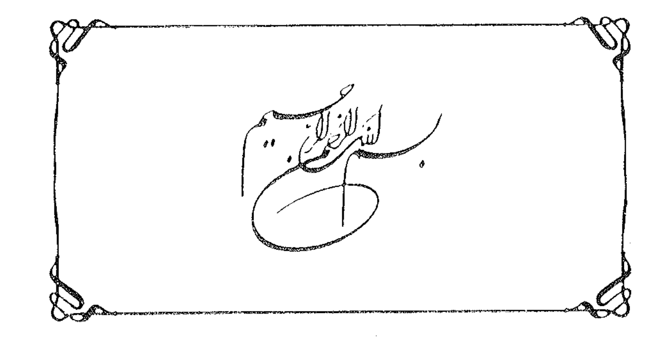


بين الأدب والتّاريخ

شاكر مصطفى



بين الأدب والتاريخ
شاكر مصطفى


بسم الله الرحمن الرحیم

ريع الدار
لهيئة مدارس أبناء وبنات الشهداء في الجمهورية العربية السورية



دمشق أوتوستراد المزة ص.ب: ١٦٠٣٥ ـ برقياً طلاسدار

هاتف: ٦٦١٨٩٦١ ـ ٦٦١٨٠١٣ تلفاكس: ٦٦١٨٨٢٠ تلكس: ٤١٢٠٥٠

بين الأدب والتاريخ

الطبعة الأولى ١٩٩٦

سلسلة أوراق من التاريخ

١

بين الأدب والتاريخ

شاكر مصطفى

الآراء الواردة في كتب الدار تعبر عن فكر مؤلفيها ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

كلمة أولى

يقول المؤرخ : أنا ترابي . إذا رفعت رجلي عن تراب الأرض ضعت !

ويقول الأديب : أنا أخلق دنياي . من فيروز عين الحبيبة . جنون الأقمار ملعبي . والروّى غنائي الأبدي .

ويقول المؤرخ : أنا للحقيقة . متى جاوزتها لم أعرف نفسي . أنا كالقاضي أبلغ السعادة متى كشفت الحق .

ويقول الأديب : أنا للجمال . للحرف المزغرد أبيع فيه ذاتي ! وثيابي !

ويقول المؤرخ : أنا ابن قيود الزمان والمكان والأحداث . ولا فكاك . هدفي العلم وعكازي الوثائق والنصوص .

ويقول الأديب : أما أنا فحرية العصفور . أرقص في عتمة الغاب . وفي ردهة القصر وعلى وجه الزبد . أنا فن الكذب . هدفي جمع الأقمار والعبث بما وراء النهود !

ويقول المؤرخ : شخوصي من الماضي . من الزمن الذي يبتعد . أطياف تراكضوا على هذه الأرض ثم تحطموا على صخورها والعواصف .

ويقول الأديب : أما شخوصي فمما وراء الخيال . إنها رؤاي وقد تكون أو لا تكون . أنا الذي أصوغها . وأنا الذي أمحو وأثبت وعندي أم الكتاب !

★★★

ويقول الذي نقل هذا الحوار أليس كل من الأدب والتاريخ يا ترى شهادة عصر ؟

شاكر

بين الأدب والتاريخ

بين الأدب والتاريخ . وما بينهما إلا قفزة صغيرة لا تكاد ترى . . .

أصحابي الذين يتهمونني بالجد الدائم من الحديث والتمسك بالنصوص والواقع الدقيق سوف يفاجأون بأني أيضاً ابن الأحلام والرؤى كما أنني ابن الحقائق الملموسة . شطحات الخيال والوهم تأكل من قلبي بقدر ما يأكل الواقع . التاريخ الذي يشغلني . يغرقني . يملؤني حتى الإفعام . يقابله عوالم لا تنتهي من الرؤى لم تتسلل فقط من الأدب ولكن من طبيعة عملي القائم بدوره على التصور والبناء في الفراغ . . . وأجدني منجذباً إلى قصص الأدب وأحداثه الضبابية انجذابي إلى قصص التاريخ بواقعيتها الساحرة سواءً بسواء .

صحيح أني لا في هذا ولا في ذاك أدركت الحقيقة الكاملة . ولا في هذا ولا في ذاك وصلت إلى شيء من الطمأنينة إن لم أكن أدمنت القلق ، شربت أفيونه وخدره ! ولكني بلى وصلت إلى المزيد من معرفة الإنسان !

وإذا قالوا إن الواقع أخصب كثيراً من الخيال وأروع وأفجع وإن الألوان في الطبيعة أغنى ألف مرة من الألوان التي يبتدعها أي رسام فإني أعترف أني لا أكاد أفرق بينهما . كلاهما مدى لروحي وذاتي . كلاهما انفتاح على العالم وعلى الأشرعة البعيدة وعلى محيطات البشرية وأفلاكها المعقدة . كلاهما وسيلة ليعرف الإنسان ، وجهاً لوجه ، لون عينيه !

ومن الغريب أني حين خطر في بالي الحديث بين الأدب والتاريخ لم أفرك جبهتي أتذكر . لم أستعن بموسوعة ألملم فيها ذاتي . كل مافعلت أمسكت القلم

وبدأت أكتب بعض الأسماء وإذا بي أمام سيل لا ينتهي . كل منها يصرخ هو وقبيله الذي ابتدع يريد احتلال حديث من الأحاديث ... ورأسي يدور .

ما هذا السيل ؟ يا لخيانة التاريخ هل كان عملي طول حياتي في التاريخ أم في الأدب ، كنت أجهد نفسي لأجد ثلاثين شخصية تاريخية تطوف حول محور واحد فإذا بي لا أكاد ألملم المتناثر من أهل الأدب الذين يتوافدون ما بين صدغي.ومع كل منهم قصة أو رواية أو مسرحية أو أكثر من قصة ورواية ومسرحية مما قرأت وعرفت في سالف الأيام ! كلهم أصبحوا من أهلي وأصدقائي وسكان جبهتي المكدودة ! ويريدون مكاناً لهم من حياتي !

بلى ! كنت نهماً في القراءة أبتلع الرواية في جلسة أو اثنتين . أتفكه بقصة وأنا أنتظر الغداء. أقيم مسرحاً كاملاً وأدير شخوصه وأنا أقرأ. ولكنني أرتعب الآن للصورة التي تراودني . لو قدر لكل شخوص التاريخ التي عرفت ولكل شخوص الأدب التي قرأت،أن تسيل عن الأسطر في مكتبتي . أن تترك قوالب الكلمات والأحرف وتقفز ، تمشي ترقص أمامي أطيافاً ورجالاً وبشراً سوياً ، فماذا تراني فاعل؟ وأي مساحة كبرى تتسع لكل أولئك ؟ وأي قيامة تقوم؟ وأي هرج ومرج يمزق الأعصاب... حتى الجنون! ومن ذا الذي يستطيع أن يفرق بين هذين العالمين عالم الواقع وعالم الوهم ؟

الفرق الوحيد الحاد بين شخوص التاريخ وشخوص الأدب هو الزمن. والزمن زئبقي يفر من بين الأصابع. إن الأوائل محبوسون برغمهم في نطاق الزمن. إنه يربطهم إلى أرضه. يستعبدهم. يضرب حولهم نطاقاً كالطوق الحديدي فلا فكاك . وأما شخوص الأدب فمما وراء الزمن. إنهم جوالون فيه فيما بين الأمس الأول والغد البعيد، فراشات ورؤى وشيئاً من الأحلام غير قليل. أما الحقائق لدى الطرفين فمتشابهة. ولعلها في الأدب أصدق وأعمق

وأكثر رعشة وحياة. إنك لمدرك عن حقد القلوب بعضها ضد بعض أكثر مما يفهمك إياه كتاب من التاريخ لو قرأت عقدة الأفاعي لفرانسوا مورياك. هناك يتجسد الحقد في صورة الأفعيين تتقاتلان وتلتف إحداهما بالأخرى والأخرى بالأولى ثم تلتف في عقدة لا تنتهي إلا بموت الطرفين. وإنك لتدرك من الحياة العباسية في الأغاني وألف ليلة أضعاف ما يحدثك به الطبري والمسعودي. وإنك لتلمس أعماق المأساة الإنسانية في رواية كامو المسماة كاليغولا أكثر مائة مرة مما ترويه كل كتب التاريخ! الأدباء، هذه الزمرة القدسية كما يصفونها وهبها الله جانباً من صفة الخلق يضيف إلى معرفة الإنسان بالإنسان ما لا تضيفه كل الكتب مجتمعة. إنها بلى! تبدع دنى من الخيال غير التي نصطدم بصخرها ولججها والرمال لكنها تضع تحت المجهر، وفي الضوء، كل ما في الإنسان من نوازع الخير ونوازع الشر من قرارة دهاليزه العتمة! ..

الشاعر الألماني الكبير هولدرلن قال ذات يوم عن الزمرة القدسية:

لقد كان الليل والصقيع خليقين أن يسودا الأرضين
وكانت الروح خليقة أن تجهز على نفسها، أن تنتحر
لو إن الإله الرحيم لم يبعث من حين إلى آخر
بمثل هؤلاء الفتيان لتنتعش الحياة الذابلة.
لينتعش الإنسان!

هذا الكيان المعقد الشائك الذي نسميه الإنسان له سواحله ومجراته وأقماره السوداء وزقزقة عصافيره الملونة. إنه لغز نفسه منذ كان. وكل العلوم والفنون والآداب، و «كل ما قد خلق الله ومالم يخلق» مسخر له. يطوِّف من حوله. وإذا كانت العلوم ومنها التاريخ تحاول ربطه بالأرض والزمن فلعله إنما ابتكر الفنون والآداب، ليهرب منهما. ليعود إلى الجنة حيث لا زمن ولا أرض، إلى الجنة التي طرد منها ذات يوم فهو لا يريد أن ينساها أبداً!

هاجس واحد فقط يقلقني : كيف أستطيع أن أحشر هذه العوالم الضخمة المتنوعة التي أبدعها الأدباء في مدى محدود من الورق ومن الوقت ومن الحديث؟ لكل كاتب عشرات الدنى . وفي كل دنيا شرايين تنبض . وأحياء يتنفسون وعويل . وعواطف . وزلازل . وخيوط من العطر تركض على الأسطر . وأنات بين الوحل والنتن . فكيف أطيق الوحي بهذا على الاطمئنان . العالم فرنسيس بيكون قال وهو يموت : أشعر كأني لست أكثر من صبي أمام المحيط الهائل يتناول الماء منه بصَدَفَة . أنا صَدَفتي أصغر بكثير والمحيط الذي أمامي مرعب السعة ومع ذلك فلا بد لي من نقل الصور وهي تفلت من بين أصابعي كما يفلت الماء على رمال الشاطىء من أصابع الأطفال .

في هذه الأحاديث إذن ، الكلام في التاريخ للأدباء لا للمؤرخين زواياهم القطاعية ، مبالغاتهم . صورهم المجسمة قد تجعل الرؤية أفضل . أعمق . أكثر شفافية ومباشرة . وكل هَمٍّ هذه الأحاديث أن تقول كلمة واحدة فقط هي أن التاريخ ليس موجوداً فقط في الكتب التي تحمل عنوان التاريخ . إنه في الأدب كما في عود الكبريت وفي كل سطر كتب كما في الإنسان نفسه . يبقى فقط أن نعرف كيف نكتشف التاريخ فينا ومن حولنا !

أم أنك تفضل الحقيقة التقليدية كالصخرة الجافة ولو جفت وجرحت على أن تشغل جبينك وسرح الخيال ؟

روح عصر النهضة الأوروبية

الدارسون لهذا التألق الذهبي الذي نشهده في الغرب يبدأونه بما يسمى بعصر النهضة. هذه النهضة ما بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر أضحت فترة ثابتة كلاسيكية في التاريخ الأوروبي. تفتح أي كتاب حضاري تشهدها تتصدر الصفحات. ويتوالى رجالها كما في الأفلام صورة بعد صورة لمقابلة أزمات أوروبا المختلفة. مقابلة تدهور السلطات الروحية، جمود السلطة الفكرية، تصاعد القلق الديني. التصنع في التعبير الجمالي والفني وهنا مؤسسة النبالة والنبلاء. الحروب حتى وصل بعضها مائة سنة، قابلها كلها عمليات لإصلاح الدين وانتشار الطباعة وعصر الاكتشافات الجغرافية ونشوء المدن والتفتح هنا وهناك في الفنون والآداب كأنما هو الربيع دنا من بعد ما بعدا ... على حد قول البحتري!

ويعدون بين الأسماء اللامعة في العلوم غاليله، وبيكون وكوبرنيك كما يعدون في الفنون، قبلهم، ميكل أنجلو المثَّال العملاق وليوناردو دافنشي العبقري في مختلف الفنون ورافائيلو الرسام المبدع وفي الأدب يذكرون سرفانتس الاسباني وبوكاشيو الإيطالي ... كل واحد من هؤلاء يمثل روح النهضة. كل اسم منها يختصر بملامحه عصر النهضة كله! .. ونقف عند الاسم الأخير بوكاشيو ولعله أقلها شهرة ولمعاناً ... هل سمعت به؟ إنه من الأسماء التي دفعها التاريخ إلى وراء الوراء. في عصره كانت تحيط باسمه ألف باقة من الزهر ... كان روح المستقبل! روح المرح والخير. صحيح أن قصصه أشبه بطبيعة بلاده

الإيطالية . فنوناً وتنوعاً وضحكات فضية مع القمر ومروجاً رزينة الجمال ولكن طبيعة عصره كانت كئيبة يحكمها التعصب الديني الأسود والتزمت الجدي ... وأما أسلوب العصر فالاصطناع والتكلف والتزويق أقل ما فيه . ولقد حاول أول الأمر مجاراة عصره ففشل مرات إلى أن اهتدى إلى نفسه وكتب : كتابه الذي ذاع : الليالي العشر ! ديكاميرون .

ولد في أسرة عرفت مباهج الثروة كما عرفت جحيم الفقر . وتردد ابنها بوكاشيو على الأسر الحاكمة طفيلياً على أبوابها قبل أن يستقر في فلورنسا . وانكشفت موهبته بعد الليالي العشر التي عبر فيها أكثر من أي عمل آخر عن الروح الإنسانية المطلة من المستقبل .

بدأ قصته بالإشارة إلى وباء الطاعون الذي اجتاح فلورنسا وإيطاليا كلها سنة ١٣٤٨ . حالات الرعب منه . جثثه الصفراء في الطرق . كيف جعل الناس في ذروة الأنانية والتهافت والتحلل من كل فضيلة الهاربون منه إلى الريف ... كانوا كثيرين ومنهم جمع بوكاشيو سبع سيدات وثلاثة فرسان لجأوا إلى دارة من الضواحي هرباً من الموت المريع ... إلى حفلة تنكرية خيالية يسرون بها عن أنفسهم ، لقد اتخذ بوكاشيو الطاعون رمزاً للأوضاع المسيطرة في عصره والناجين هم طليعة الغد . لم يفكر هؤلاء الهاربون في معونة الناس الفردية كانت فلسفتهم أنا وبعدي الطوفان واقترحت عليهم الحسناء المكلفة بالسهر على راحتهم أن يحكي كل واحد منهم حكاية كل ليلة ... وكان من ذلك حكايات الليالي العشر ... مائة حكاية ! شخوص القصص لا يفكرون التفكير الحر فقط ولكنهم يتصرفون أيضاً التصرف الحر وينظرون إلى الحياة نظرة تستوي فيها الصراحة والطيش . إنهم لا يؤمنون إلا بمبدأ واحد : عش ودع غيرك يعش !

بوكاشيو أراد أن يكسر الأقنعة المتجمدة على الوجوه ، أن يلعن ، في

هدوء، القيم التي تضغط على روح الناس. أصحابه تخففوا من تعصب العصور الوسطى ومن تجهمها الأسود. تخففوا من التعصب لم يعودوا يصدرون في حركاتهم عن أي روح صليبية أو متزمتة، تخلصوا من رعب الخطيئة الأولى. ولا يريدون أن يحولوا أحداً إلى دينهم كما لا يريدون هم التحول إلى دين غيرهم: لكم دينكم ولي دين! وإذا كانوا لا يكترثون بالماضي فهم لا يكترثون أيضاً بالمقبل الآتي على السواء. متعة اليوم يشترونها بكل ذكريات الأمس وكل وعود المستقبل! إحدى القصص تقول:

إن الفيلسوف ديوجين حين لقي الاسكندر المقدوني حاول لومه على طموحه الأحمق في حكم العالم وسأله:

ـــ بعد أن تغزو أثينا ماذا تريد أن تفعل؟

ـــ أغزو فارس.

ـــ وبعد فارس.

ـــ أغزو مصر.

ـــ وبعد مصر.

ـــ أغزو باقي العالم

ـــ وبعد غزو العالم.

ـــ أقعد وأستريح وأستمتع بالحياة...

فقال الفيلسوف ولم لا تقعد وتستريح وتستمتع بالحياة الآن؟

وسأله الاسكندر: ماذا تريد من خدمة؟ فقال: أن تزيح فلا تحجب النور عني!!... الكتاب كله شلال من الضحك حتى في حكاياته الحزينة. وإذا قالوا إن فولتير يضحك ليخفي دموعه فإن بوكاشيو يذرف الدمعة بين الحين والحين ليجعل للضحكة «طعماً لاذعاً» يزيدها إثارة. إنه ليس بالساخر ولكنه يفضل استقبال الحياة كما تجيء على الهزل والجد... التسامح الواسع

وبمعنى آخر : الحرية الفردية هي محور كل القصص وهي نفسها المبدأ الذي كان يشكل روح العصر الآتي في ذلك الحين. في إحدى القصص يروي أحدهم قصة أرمينو غريما لدى ، الجشع أمير مونته كارلو : أريد أن أنقش منزلي نقشاً جديداً وأريد أن تقترح علي موضوعاً لهذا الرسم شيئاً لم أره قط فأجاب صاحبه على الفور : ارسم التسامح !! وفي قصة أخرى يتحدث المتحدث عن أبراهام اليهودي الذي بلغ من الأمانة والصدق مبلغاً جعل صديقه المسيحي دي شيفيني يتمنى إدخاله في المسيحية ولكنه كان يرفض. لقد ولد يهودياً ويريد أن يبقى يهودياً ويموت كذلك ولح دي شيفيني على صاحبه ثم ألح حتى إذا وافق اليهودي اشترط أن يذهب أولاً إلى روما لمقابلة البابا نفسه والنظر في سلوكه وسلوك الكرادلة.وقلق دي شيفيني فلو ذهب الرجل إلى روما ورأى شرور رجال الكنيسة يومذاك لعاد ولو كان مسيحياً لتهود !! وحاول أن يثني صاحبه عن عزمه ولكن اليهودي أصر ... ولما عاد ذكر لصاحبه ما رأى من ألوان الرذيلة في سلوك القسس ومن ألوان الحرص على المال ولو من دماء الناس ومن وضيع الدنايا التي يرتكبون ... وعرف دي شيفيني أنه خسر هداية الرجل.ولكن أبراهام اليهودي قال إنه تنصر ! كيف؟ قال إذا كان رجال الكنيسة بكل هذا السوء ولم تمت المسيحية فهذا يعني أن الله مع هذا الدين !

في قصة ثالثة هي قصة الخواتم الثلاثة يروي بوكاشيو قصة عظيم من الأثرياء صنع خاتماً فائق الروعة والثمن وكان يريد أن يبقى هذا الخاتم في أسرته إلى الأبد. يتوارثه الكبير فيها. وتوارثت الأسرة الخاتم جيلاً بعد جيل حتى انتهى إلى رجل عنده ثلاثة بنون حار لمن يعطي الخاتم منهم وكلهم سواء من محبته والطاعة له فجاء بالجوهري وكلفه صنع خاتمين آخرين لا يفترقان أبداً عن الخاتم الأول. وصنع الجوهري الخاتمين بإتقان جعل الأب يعجز عن تمييز الأصل بينها. ولما حضره الموت أعطى كل واحد منهم في السر خاتماً. وشجر الخلاف بينهم بعد موته. كل يدعي أنه صاحب الخاتم الوحيد الأصيل واحتكموا أخيراً

إلى القانون ... ولا تزال القضية منظورة لأن أحداً لم يستطع أن يفصل فيها إلى اليوم! لماذا؟ يعقب بوكاشيو المسيحي قائلاً هذا ما حدث للأديان السماوية الثلاثة التي منحنا الله. كل منهم يؤمن أنه الوارث الوحيد ولم يحكم لأيهم أنه الحق! أي جرح في هذا الجهد العصور الوسطى المتزمت ولرجال الكنيسة الجبارين. ولكنها كانت الروح التي بدأت تسود عصر النهضة الأوروبية في أعقاب الحروب الصليبية المرة. والناس في أوروبا لا يزالون إلى اليوم يقرؤون بوكاشيو ويرون أنه الأعمق بين مؤرخي عصر النهضة، ولو كان أديباً يروي القصص!!

دون كيخوته... وسرفانتس

في قلب مدريد، وفي ساحة من أكبر ساحاتها يقوم تمثال لفارس مبروم الشارب معروق الوجه، والجسم، تحسبه هيكلاً عظمياً على حصان أشدَّ هزالاً من راكبه الذي يمسك الرمح بيده ومن ورائه حمار منكس الرأس يركبه خادم منكس الرأس مثله! وزمر الزوار معجبة تطيف بالتمثال المزدوج الذي يعتبره الاسبان إحدى مفاخرهم. فيؤمن على ذلك الأبعدون والأقربون! إنهم يعرفون أنه لشخصيتين لم تعرفا النور أبداً إلا في الخيال وإلا على الورق. ومع ذلك يحرصون على المرور بها من مدريد. ولقد ينسى بعضهم اسم صاحبهما الذي ابتكرهما وحلق فيلتمسونه على الرخام الذي يحفُّ بالتمثال. ولكنهم لا ينسون اسم الفارس المعروق نفسه ولا اسم صاحبه الذي وراءه: إنهما دون كيخوته وسانشو تابعه الأمين...

(خالق) أو مبتكر الشخصيتين المتلائمتين هو عجوز ظل نكرة من النكرات حتى الستين من العمر: اسمه ميغيل سرفانتس! وكانت حياته سلسلة من المتاعب والقلق في عصر كانت اسبانيا تفيض فيه بالذهب الأمريكي الآتي على جميع المراكب! أما سرفانتس فكان سيء الحظ بما فيه الكفاية. ولد لأب مشعوذ في الطب فلم يكسب منه شيئاً. ويضطر للقيام بمبارزة فاشلة وهو بعد حدث. ثم يجمع مادة لمؤلفات يؤلفها فيفشل. ثم يتطوع في الجيش فإذا به يجرح في معركة ليبانتو ويفقد يده اليسرى في المعركة ويظلع جنبه. فيظل يلقب بكسيح ليبانتو. بعد ذلك. وخلال عودته من الحرب يقع أسيراً في أيدي بحارة

من الجزائر، فيباع بيع الرقيق ويقضي في العبودية خمس سنوات كانت أحلى سنوات عمره فقد كانوا يحسبونه الصيد الثمين، ثم يجرب حظه في الشعر فإذا شعره من أسوأ ما عرف النظم الاسباني ويحاول الكتابة فيكتب ثلاثين أو أربعين مسرحية لم يتح لواحدة منها أن تقف على المسرح لأنها أسوأ من شعره... وسلك بين العملاء التجاريين الذين أحاطوا بأسطول الأرمادا الاسباني ولكن هذا الأسطول تمزق أمام الإنكليز شر ممزق... فعمل جابياً في غرناطة فنقص الإيراد في أيامه نقصاً ذريعاً أوصله إلى السجن. وقبل أن يبلغ الستين كان قد أضحى حطام رجل. مهتم الأسنان أبيض اللحية يسير إلى النسيان الأبدي...

وألقى الرجل ذات يوم كتاباً ضخماً للناشر فإذا به فجأة يبلغ أقصى المجد الذي ظل يطارده ستين سنة! وركض اسم دون كيخوته بين الناس ثم بين لغات العالم حتى أضحى من المعالم الأساسية لا للأدب الاسباني فحسب ولكن للأدب العالمي وليقف بجانب معاصره شكسبير الإنكليزي وسابقه دانتي الإيطالي ولاحقهم الألماني من بعد: غوته. وليست دون كيخوته قصة بالمعنى الصحيح للقصة، إنها مجموعة فصول وقصص يقوم بها عجوز قضى عمره متبطلاً كسولاً في قرية منسية في ناحية لامنشا. تسليته الوحيدة قراءة قصص الفروسية ومغامرات الأبطال حتى امتلأ دماغه بهذا الذي يضرب القلعة بسيفه فتندك تراباً. وذاك الذي ينتزع التل فيضرب به سفينة في البحر. والثالث الذي يواجه جيشاً من عشرة آلاف فيقتل خمسة بسيفة ثم يقتل الباقين بشجرة انتزعها... كانت هذه القصص شائعة في ذلك العصر جداً... وفقد الرجل عقله وتصور أن العناية الإلهية تناديه ليخرج بسيفه فارساً جوالاً يملأ الدنيا عدلاً. ويحصد الطواغيت والعمالقة حصداً. وشرع في تلبية النداء! ومن أشيائه الصدئة تدبر درعاً ورمحاً وسيفاً وخوذة بطنها بالورق لتلائمه، وقلد

الفرسان في اتخاذ حبيبة خيالية واسم ضخم يدل على النبالة ... ونزل بخان صغير فلما رأى الناس جنونه سايروه وكرسه صاحب الخان فارساً عند حظيرة للخنازير ! وعاد فأقنع فلاحاً مسكيناً أن يكون تابعاً له وأغراه بأنه سيجعله ملكاً على بعض الجزر فتبعه الفلاح سانشو على حمار ...

واكتملت (لدون كيخوته دولامانشا) كل صفات الفرسان وبقي أن يقاتل الطواغيت ... الصورة كلها من أولها إلى آخرها سخر عميق مرير بطبقة الفرسان التي كانت تنهار في ذلك الحين، في اسبانيا، كما في غيرها. لأنها كانت تفقد في الواقع وظيفتها فهي تتمسك بالقشور والمظاهر. كان النبلاء قد بدأوا يفرغون من الداخل ويصبحون نموراً من ورق. بعضهم كان يحتفظ بالسيف يلفه حول وسطه وليس لديه رغيف خبز. الذهب المتدفق من أمريكا أوجد طبقة جديدة تركزت في المدن تاركة أرض النبلاء وألقابهم وسيوفهم للشيطان. طلائع العصر الآتي كانت ترتسم في الأفق وجاء سرفانتس فأعطاها هذه الصورة الكاريكاتورية المضحكة. لعل قلمه الساخر كان أفتك السيوف فيها. كان الناس يجدون من كل نبيل دون كيخوتة ويلتفتون عنه وهم يضحكون ! لقد افتضح النبلاء على أهون السبل ! مغامرات دون كيخوتة بعد ذلك ليست سوى تأكيد على هذا المعنى إن الطبقة النبيلة أضحت خاوية. تجاوزت عصرها فهي متساقطة كورق الخريف ... لم يقل سرفانتس هذا صراحة أبداً. ولكنه كان يقوله في كل كلمة من القصة الطويلة، التي لا تخلو من الثغرات والأخطاء.

ويمضي دون كيخوته وصاحبه سانشو في مغامراتهما المضحكة حتى المأساة ونمضي معه فيحسب طواحين الهواء مردة وقلاعاً، والمجرمين سادة والعاملات في المشارب ملكات ويحاول رد الظلم عن أهله فلا يلقى من الجزاء من الطرفين إلا اللكم والركل بالأرجل. ويفتح دون كيخوته ذات صباح عينيه

ليرى اثني عشر رجلاً مقودين بالسلاسل في الأيدي والأعناق يحرسهم فارسان فيرى أنهم من العبيد الرقيق المسخرين... فهم مظلومون إذن ويسألهم فإذا واحد أحب سلة من الكتان فاحتضنها وثان لم يجد عشرة ديكات يدفعها للمحامي وثالث اضطر أن يعترف بأنه سارق... ويبذل لهم العون ويهرب الحراس ويتحررون من الأصفاد فإذا هم يطاردونه وصاحبه بسيل من الحجارة. واعتبر كيخوته مع ذلك عمله هذا نصراً يهديه لحبيبته. ويضطر مرة للاختفاء في الجبال من الاخوان المقدسين. وهؤلاء هم الشرطة الاسبانية. ولكنه يرجو سانشو ألا يحدث أحداً أنه فر واختبأ فهي مؤامرة من الشياطين ضده ولو أمسكوه لمنعوه من إتمام مهمته في العدالة. ولكي يكفر عن عمله يضرب رأسه في الحائط مرات بعد مرات. وينخرط مرة في مبارزة مع زق من الخمر يحسبه مارداً مسحوراً.

وذات مرة أراد أن يفك السحر عن محبوبته فأقنع سانشو أن ذلك لا يكون إلا بجلده ألفاً وثلاثمائة جلدة... وفعل. ويحاربان القطط المسحورة بعد ذلك. ويلتمس سانشو من الحاكم أن يعينه على بعض الجزر فعينه ليسخر منه حاكماً لقرية فدخلها في عظمته ولما قدم إليه الطعام الشهي أفهموه أنه مسموم فبقي سبعة أيام لا يأكل ثم استعفى وطلب فقط طعاماً لحماره ورغيفاً وقطعة جبن صغيرة لنفسه.

ويسير من جنون إلى جنون حتى يعثر عليه قسيس قريته فيعيده إليها في قفص! وأما سانشو فما أن يصل القرية حتى تسأله زوجته: هل حمارك بخير؟... وزيف بعض الكتاب الجزء الثاني من القصة فأرغم سرفانتس على كتابة هذا الجزء قبل موته بسنة، ولكنه كان في معظمه حول جنون سانشو فالقصة تبدأ بجنون كيخوته وتنتهي ببلهه في حين تبدأ ببله سانشو وتنتهي بجنونه. وفي الحالين، ورغم الركل والصفع والحجارة والضحك المستمر يظلان

يطلبان العدالة والخير للناس حتى لتنتهي بالإشفاق والرثاء لهما وليس بالضحك .

وخلال هذه الأحداث تتكون لديك صورة رائعة لاسبانيا وحياتها في القرن السادس عشر كل أصناف المجتمع تجدهم هناك في صور حية فياضة بالصدق والعمق . نبلاء . شعراء . حلاقون . مشعوذون . قسس . تجار . زراع مكاريون . فلاحات ساذجات وخدم ومتبذلات وعاشقات وأهل سجون وضباط ... كلهم يخطرون على شاشة سرفانتس في دون كيخوته . المجتمع الاسباني كله في حركته الحية الحقيقية .

فإذا أردت أن تعرف شيئاً عنه فأغلق كتب التاريخ . أغلقها كلها وافتح القصة واقرأ . هناك تجد نبض الحياة وإيقاعها . وتجد التاريخ !!

بيلاسكو إيبانيز

لو كشطنا نحن الاسبان جلدنا المسيحي لظهر تحته جلد العربي المسلم ... قائل هذه الكلمة هو حديث اليوم بيلاسكو إيبانيز ، وقد يقع هذا الاسم اليوم في مسمعك دون أصداء ولكنه فيما بين الحربين العالميتين كان حديث الدنيا في الأدب الاسباني والضجيج من حوله يملأ الآذان . قصته التي نشرها سنة ١٩١٤ بعنوان مأخوذ من الإنجيل (فرسان الرؤيا الأربعة) ويقصد بهم الموت والحرب والجوع والظلم هي التي رفعته . لم تبق لغة عالمية إلا ترجمت إليها الرواية ... عدا العربية بالطبع . كان في السابعة والأربعين من العمر يوم صار فجأة أديباً عالمياً صاحب مجد .

قبل ذلك ؟ قبل ذلك كان مجرد محام فاشل وصحفي معارض وسياسي ضد الحكم في بلده بلنسية . ويوم نشر هو بعد في الثامنة عشرة قصيدة في النقد السياسي كان أجره عليها ستة أشهر في السجن . وظل بعد ذلك المعارض السياسي في الجريدة التي أصدرها وما أكثر ما صودرت ومنعت وظل الزعيم السياسي الذي انتخب نائباً ست مرات في عشر سنوات ! كان جمهوري الهوى والبلاد ملكية . ولذلك دخل السجن ثلاثين مرة . وهرب إلى إيطاليا وفرنسا مرات ... حتى مل السياسة أو ملته وهو في الثانية والأربعين فطلقها طلاق اللعان لينصرف إلى الأدب ... وفشلت رواياته الأولى . بعضها لم تبع خلال سنوات سوى ٧٠٠ نسخة . فلما نجحت رواية فرسان الرؤيا الأربعة سنة ١٩١٤ في فتح أبواب المجد أمامه وانهالت عليه الأموال حتى من قصصه

المنسية السابقة بالألوف المؤلفة. صار يتقاضى دولارا عن الكلمة. وصار صاحب يخت وجوّاب بحار... يجر وراءه مع الأيام نحو ثلاثين رواية طويلة عدا عشرات المجاميع من القصص ومن كتب الرحلات... فالتجارة رابحة جداً رغم ما في بعض أسلوبه من الركاكة وما في ثقافته من الضعف والسطحية.

رواية (الكاتدرائية) التي كتبها سنة ١٩٠٣ كانت ضد تسلط رجال الدين على الناس... أدار حوادثها في كاتدرائية طليطلة أمّ الكنائس الاسبانية، والقدس الكبير للكاثوليكية في الدنيا. لم يكن يحفل بمرمرها ولا نقوشها ولا قدسيتها فهو ضد كل هذه المظاهر. ولكنه وجه أنواره إلى مجموعة الأسر التي تعيش في أعلى الكنيسة خدماً لها من الكناس إلى الاسكاف والبستاني والحارس والبواب. ونثر بين هؤلاء آراءه ثورةً على الكنيسة ورجالها، وعلى الملكية الاسبانية وأنصارها وعلى الإقطاع الذي انتهى من أوروبا كلها ولم ينته باسبانيا. ثورةً على كل ما هو مهترئ من تلك البلاد، وهو ما كان سبباً في الحرب الأهلية الاسبانية قبل الحرب العالمية الثانية! مبكراً تنبه لذلك. ولكن الرواية حرمت في اسبانيا أكثر من سبعين سنة لما فيها من العنف والصراحة والإسراف في التشاؤم... وفي النقد.

حين تبدأ القصة نرى رجلاً أمام الكاتدرائية يطوف حولها مع ضياء الفجر ويرمقه جيش الشحاذين شذراً. منظره هو الفقر بعينه ولكنهم ليسوا على استعداد لأن يشاركوه في مهنتهم هذه. وفتح الحارس باب الكنيسة وقفل عائداً إلى غرفته ليتابع النوم.وكان الغريب يعرفه لكنه لم يناده. ودلف إلي باب صغير خلف الكاتدرائية ودخل ورأى رجلين يعرفهما فنادى واحداً منهما:

ـــ عمود الخشب!

وتلفت عمود الخشب وإذا به يصيح: غابرييل. أخي. أهذا أنت؟

وخلال العناق كان يسأل : متى أتيت ؟ أين كنت ؟ كيف حالك ؟ ما أتى بك ؟

ـ أتيت من مدريد ولكني قبل ذلك كنت في إنكلترا وفرنسا وبلجيكا ... وبلاد أخرى قذفتني الواحدة إلى الأخرى .

ويكشف الحديث أن غابرييل والعمود أخوان.ومن أسرة قضت أجيالاً في الكاتدرائية تمارس البستنة.وكان منها قسس ورهبان وبساتنة وخدم . إنهم بعض من أعمدة الكاتدرائية . وكان غابرييل محبوباً لأبيه مدمناً للقراءة.فأحب الأب البستاني أن يسلكه في الكهنوت ليكون أسقفاً . ولكنه كان يحلم بمستقبل آخر ... لم تكن المطالعة الكثيفة هي التي أفسدت مسيرته وهدوءه ولكن ما عرف عن رجال الكنيسة من أنهم رجال مال ومؤامرة وحرب . همهم الثروة لا تجنيب الناس الخطايا . وتبين أثناء مطالعته أن الكنيسة لم تحترم معبداً ورجالاً إلا أيام العرب . لم يقتلوا ولكنهم كرموا ولم تبلغ مواردهم ما بلغت إلا في تلك الأيام . وما أصابهم من الضغط في تلك الأيام إنما كان نتيجة أعمالهم الوحشية في كل بلد كانوا يأخذونه من العرب . ما يسمونه في اسبانيا بحرب الاسترداد المقدسة فإنما أشعلها الأساقفة ضد الحضارة وضد الإنسان كإنسان . فلا هي استرداد ولا هي مقدسة وإنما هي صليبية من الصليبيات العمياء ...

وتنازعت في صدر الفتى النوازع وجاءت ثورة أيلول / سبتمبر / سنة ١٨٦٨ في سلسلة ثورات اسبانيا ضد عجز الأسرة الحاكمة عن إقامة الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي للبلاد فهربت الملكة إلى فرنسا.وقام أمير اسمه دون كارلوس في الشمال يرم العرش وانضم إليه رجال الدين وقامت في البلاد حرب أهلية مجنونة ... لا رأس لها ولا ذنب ... وأفاقت الأسرة ذات صباح فإذا بابنها الشاطر قد هرب إلى قوات دون كارلوس يحسب أنه يحارب لمثل أعلى تحت إمرة قائد محترم.ولكنه وجد شراذم من اللصوص والقتلة

والنهابين . كل همهم السرقة والنهب وخطف النساء... وأصبح غابرييل واحداً منهم . ولما تماسكت الدولة تفرق هؤلاء فعاد من عاد إلى قريته كأنه لم يصنع شيئاً وعبر بعضهم الحدود إلى فرنسا . وكان غابرييل بين العابرين...

وتفاذفته البلاد بعد ذلك ، وهو جائع دوماً . قاسى من الشقاء ما لا يخطر ببال حتى ألحقته رهبنة فرنسية مصححاً في مطبعتها . واكتشف وهو يقرأ ويصحح أن رجال الدين في فرنسا وإن لم تكن شرورهم أقل إلا أنهم أبناء العصر . أما كنيسة اسبانيا فما تزال تغط في العصور الوسطى ! وأصبح غابرييل ملحداً وعاش في باريس سنوات شديدة من الفقر مع المتشردين . وإن تكن سنوات تفتح ذهني.وانتقل إلى إنكلترا ليجد أن من كانوا يقولون له عنهم إنهم كفرة فيهم الكثير الكثير من أهل التقى... وعاد إلى بلجيكا . إلى هولندا . إلى ألمانيا . إلى إيطاليا... فلم يجد أكثر تدميراً لبلده من الجهل... وقرر العودة ليحارب هذا الأفعوان ذا الرؤوس السبعة !

لكن منذ وصل صار له ملف لدى الشرطة ومكان دائم في السجون . الله وحده يعلم كم مرة ضرب حتى أشفى على الموت.وكم سجناً رأى ولا زريبة البهائم.وكم سجيناً دون جريرة عرف.وكم مرة تعمد أن يساق إلى السجن ليجد الخبز الذي لا يصل إليه وهو حر... فحياته في خارج السجن أشقى... تبين أخيراً أن أحلامه الكبيرة بالإصلاح تموت . تموت تموت وعيناه تنظران . في حين كان الجوع يمزقه... وأعين الشرطة لا تغفل عنه . إن الطريق إلى الحرية طويل إذن ومرير المشقة وأحس باليأس حين شعر أن السل أمسك برئتيه... وأحس بالحاجة إلى مكان يموت فيه بهدوء... فعاد إلى الكاتدرائية وإلى أهله فيها... هناك استراح وصار مصلحاً بالحديث فقط لا بالعمل الثوري .. وهناك كان يحدث أهله وزواره عن اسبانيا وتاريخها ومآسيها . وعن رجال الدين الذين يكفرون بالسيد المسيح ألف مرة بأعمالهم في حين يقيمون باسمه الصلوات ويجمعون

الأموال ... وذات يوم وقف راهب شاب يتحدث مفاخراً بطرد العرب من اسبانيا وبالخدمة الكاثوليكية الكبرى التي قدمها الملكان : فرناندو وإيزابيلا ، بهذا العمل العظيم فانبرى له غابرييل ولقنه درساً طويلاً حول هذه المغالطة الكاذبة . قال :

— إن عصر هذين الملكين كان عصر انحطاط يا سيد ! إنهم يسمونه العصر الذهبي ولكن التاريخ لا يدرس بعقلية الهمجي الذي يقدر الأشياء بلمعانها . لا القوط ولا الرومان أعطوا اسبانيا شيئاً . وحدهم العرب أعطوها لأن فتحهم لم يكن عسكرياً بل حضارياً . معهم دخل الشرق إلى اسبانيا التي استقبلته بأذرع مفتوحة . وقام في اسبانيا عهد من التسامح الديني لم تعرفه البلاد من قبل ولا عرفته من بعد ... حتى الكنيسة كانت تقوم بجانب الجامع على الرحب والسعة . ولقد أتى العرب بكل مكتشفات الأمم . أتوا بالحرير والقطن والبن والورق والبرتقال والرمان والزيتون والسكر والتمر وأدخلوا الأرقام والحساب والجبر والكيمياء والطب وعلم الفلك ... والشعر والأدب وفلسفة الإغريق ! حتى قواعد الفروسية النبيلة ... بلاسكو ايبانيز وضع كل آرائه حول العرب في فم غابرييل ..

بقية قصة إيبانيز مفارقة غريبة إذ تعتمل الثورة في قلوب هذا الجمع الصغير. ولكن ماذا يفعلون وهم قبضة رجال فقراء ومحدثهم ليس أكثر من حارس ليلي . في الكنيسة الكبيرة ؟ وذات ليلة بعد حفل ديني كبير طافت فيه الجموع بتمثال العذراء في المدينة .

ثم أعادته ليبقى حتى الصباح بمجوهراته وحليّه والشموع في المذبح وجد غابرييل في الليل وقع أقدام وعرف فيهما الاسكاف وخادماً من خدم الكنيسة جاءا يسرقان ما على التمثال . قالا إنهما ينتهزان المناسبة لرفع الظلم عنهما وعنه أيضاً .

وحاول غابرييل أن يفهمهما أن الثورة شيء والسرقة شيء آخر ...

الثورة هي الخلاص من الفقر . ولما اشتد الجدل ضربه أحدهما بمفتاح ضخم على رأسه فخر صريعاً وأخذ اللصان ما أخذا وتسللا في الظلام ... ولفظ غابرييل أنفاسه وفي أذنيه كلمات أخيه عمود الخشب :

ــ أنت تشعل النار يا غابرييل فاحذر أن تكون أول المحترقين ...

لن تجد قصة أروع من هذه تحكى في مدى صفحات تاريخ اسبانيا كله أواخر القرن الماضي بكل ما فيها من مرارة ومأساة . مرة أخرى دخل الأدب على التاريخ ينافسه !

وفاز الأدب في المنافسة وانتصر إيبانيز ... المؤرخ !

من تاريخ الهنود الحمر

خورخي إيكازا اسم غريب عليكم ولسوف تبدو غريبة معظم تلك الأسماء التي سوف تسمعون في هذه الأحاديث وإن تكن لأدباء مشهورين من لحم ودم وقد عاشوا في مكان ما على الأرض . وأنا عشت في ذلك المكان الذي عاش فيه إيكازا فيما بين الأكوادور وكولومبيا . وهناك عرفت إيكازا وقرأته ... وأغلب ظني أنه اليوم في رحمة الله . أو تجاوز الثالثة والثمانين ! أروع رواياته التي نشرها كانت وهو في السادسة والثلاثين من العمر سنة ١٩٤٢ ، ثم تراكمت لديه تسع روايات مخطوطة لا ناشر لها ... لأن جرأته في فضح ثالوث المال والكنيسة والحكومة تكلف الكثير في أمريكا اللاتينية . ومن يخرق حرمة الثالوث المهيمن الجبار لا بد أن يدفع الثمن . وقد دفعه إيكازا مرغماً عن يد وهو صاغر . إن رواية واسيبونغو هي التي فضحت آراءه ! . إنها واحدة من ثلاث أو أربع روايات تفضح مآسي أمريكا اللاتينية كلها ...

واسيبونغو هذه؟ إن شئت المعنى اللغوي فهي كلمتان من لغة من يسميهم بالهنود الحمر في الأكوادور وكولومبيا وفنزويلا : لغة الكيتشوا وتعني : أجر السكن ! وهي قطعة أرض صغيرة يؤجرها الأوروبي الأبيض للهندي الذي يعمل في أرض هذا الأوروبي ليسكنها ويعيش من غلتها ! أما إن شئت الواقع فهي وثيقة القنانة والعبودية المكتوبة على الهندي برغمه . قد يهرب منها إلى الجبال ولكنه في الأغلب عائد ، مع الجوع ، فراجٍ السيد الأبيض أن يضع في عنقه طوق القنانة ويؤجره الواسيبونغو ! ليعيش . القوانين تحرم الرق ولكن الواقع

أن الرق موجود . والمفروض أن القسس نصروا الهنود منذ أربعة قرون ولكنهم لا يزالون يمتصون دماءهم حتى المشاش.وفي حلف مشترك مع الإقطاعيين لا يغيب عنه الأمريكي البشع!

وقصة إيكازا تدور حول سيد إقطاعي أبيض وعبيده الهنود في بعض أودية الأكوادور . السيد الفونسو بيريرا يشكو الإفلاس حتى لقد رهن قريته بسبب ديونه الكثيرة . ولكن عمه الإقطاعي الآخر جاءه يوماً بمشروع يعده الأمريكان.ويشمل أراضي الاثنين وما عليه إلا أن يفتح طريقاً بينه وبين أرض عمه . وسرعان ما قبل المشروع . فما هذه الطريق التي تمتد خمسين كيلومتراً بين الأحراج والمستنقعات والصخور ... وعنده الهنود في القرية؟ وأخذ طريقه في القطار إلى قريته مع ابنته وزوجته . ومحطة القطار تقف بعيداً جداً عن القرية والذين استقبلوه من ناظر الضيعة إلى ممثل الحكومة إلى مجموعة الهنود لم يأتوا إلا بحصان واحد ركبه ألفونسو . أما زوجته وابنته فقد ركبت كل منهما هندياً من الحفاة . وحين دخلت القافلة الأحراج وأخذ الطريق في الصعود عجز الحصان عن متابعة السير فنزل السيد وامتطى هندياً آخر من عبيد الأسرة لا يعرف من الدنيا إلا مالكه ومالك زوجته ومن ينجب من الأطفال . يعيش في حالة رعب دائم من كل شيء. إنه دليل عارف بالأرض ولكن حالة الرعب ترجف ركبتيه! ... على الشوك والحصى وبقايا الجذوع وصلت القافلة أخيراً إلى الضيعة . كل من فيها عبيد لسيد بيريرا إلا القسيس فله إقطاع آخر باسم الكنيسة وله بدوره عبيده وخدمه ... وثروته و ... خليلته أيضاً وله منها أولاد ... ولكن من ذا الذي يحاسبه والجميع هنا هنود مصيرهم إلى جهنم!

وصدر أمر السيد بتعبيد الطريق كل عبيد القرية سخروا . كل حيوانات القرية سخرت . حين اعترض ناظر القرية على استخدام الحيوانات كاشفه بيريرا بأنه لص يريد استغلالها في أرضه ويؤجرها للآخرين ...

ووضعت ابنة السيد بيريرا مولودا سفاحاً فأتى بالهنديات وأمرهن بخلع ملابسهن ليختار مرضعة لحفيده . وانتزع من اختارها من أطفالها وحين هربت مع زوجها بعد حين اختار أخرى فتركت طفلها لأبيه يرعاه ويطعمه في الفترات التي يتوقف فيها عمل الطريق وحبست المرضع في بيت السيد تقضي مآربه . . .

قطيع الهنود كان يخرج مبكراً كل صباح تحت السياط . من وقع ميتاً من القطيع ركلوه على قارعة الطريق . وعلى كل هندي كل يوم تمهيد قطعة من هذا الطريق والويل له إذا لم ينجزها . أو إذا وقع من العناء . أما الطعام فقبضة من دقيق الذرة قد يأكلها الهندي عجيناً ! وحين بعدت مسافة الطريق كان على الهنود أن يناموا في أماكنهم حيث وصلوا وفي العراء ولو تيبست أعضاؤهم من الصقيع المحرق . يتكومون كتلاً من اللحم تحت الروانا (وهي قطعة من الصوف يغزلونها بأيديهم وينسجونها وفي وسطها شق يدخلون فيه رؤوسهم) . وقد سقطت الأمطار ذات ليلة سيولاً جرفت بعضهم وتركت الأرض وحولاً تحت بعضهم الآخر ولكن العمل لم يتوقف في اليوم التالي . . . كانت السياط للمتوانين بالمرصاد . السخاء الوحيد الذي كان يحظى به الهنود هو شراب Aquo Ardiente (الماء الحار) وما هو بماء ولكنه شراب كحولي يحرق البلعوم حرقاً ويبعث في الجسوم المكدودة الحرارة .

ومضى الطريق بتكامل تدريجياً والهنود يتساقطون على طرفيه أمواتاً . . . ما يهم إن ثمن الهندي لا يزيد على عشرة أو عشرين قرشاً ! ووصل الطريق منطقة المستنقعات الموحلة وتردد العمال في خوضها ولكن السياط دفعتهم إليها . وحين غاص أول هندي في الوحل وأخرجوه غضب السيد بيريرا .كان يجب أن يتركوه يغرق.فذلك يجعله مدماكاً تحت الطريق . . . واعتادوا بعد ذلك ترك الآخرين يغرقون في الوحل المبتلع ! وحين اعترض مهندس المشروع على ذلك كانت لدى السيد بيريرا حججه المشروعة للدفاع عن موقفه . فالمشروع

ضخم ولا بد فيه من التضحيات . وهو يفقد من رأسماله بفقد الهنود لكي يبيض وجه الحكومة وينجز أعمالها.ثم إن الذين يموتون في الحرب هم أضعاف أضعاف هؤلاء العمال الهنود الذين لا قيمة لهم.ثم إن مستقبل المنطقة يقوم على إنجاز هذا المشروع.وهو الذي يضحي بمصالحه وماله ثمناً لهؤلاء الذين يموتون أو يهربون فرادى وجماعات إلي الجبال وليس غيره ... ويسكت المهندس ويتابع الطريق مشواره في الإنشاء.

في مشهد أخير يكشف إيكازا ممثل الحكومة في القرية . فإذا هو تاجر رقيق وماشية وغلال وزوجته الخليعة تدير الحانة التي تسقي السم للهنود، وتحرقهم به . ويفضح إيكازا القسيس فإذا هو بدوره أكثر فساداً . نفقت بقرة فمنع الهنود من اقتسامها فأكل اللحم يفسدهم.وحين بدأت بالعفن دفنها فتسلل الهنود في الليل وتناهشوا لحمها الفاسد ... ومات منهم نفر كبير فلما ذهب بعضهم لإقامة القداس. طلب القسيس مبلغاً كبيراً لإقامته . أم يحسبون أنهم يدخلون الجنة مجاناً ؟ ورفع القسيس يديه للسماء يدعو : أي كفر هذا ... وخنع الهنود !!

تقاسم السيد بيريرا أخيراً مع ممثل الحكومة والقسيس خيرات المشروع : مكاسب الطريق للسيد . ومكاسبه التجارية لممثل الحكومة أما « السيد الكورا » (أي القسيس) فيقيم قداساً عظيماً،وعلى كل هندي أن يدفع له مبلغاً محدداً ليحصل على البركة ... وكان ذلك كله ! وجاءت الشركة الأمريكية . بعد ذلك بباقي المشروع : إقامة مزرعة نموذجية . ولا بد في إقامتها من إخراج الهنود من مساكنهم وأخرجوا إلى العراء دون إنذار فإذا هم دون أرض ولا مسكن ولا مورد عيش ...

عبثاً استعطفوا السيد ولكن صم آذانه عنهم . لم يعودوا ينفعونه في شيء وعبثاً تكلموا مع ممثل الحكومة ... إن الحكومة بعيدة وليس في يده اتخاذ القرار

وعبثاً لجأوا إلى الكنيسة والقسيس . إن ما قدره الله كائن لا محالة وهذا قدرهم . أعلى إرادة الله تتمردون ؟

ولم يجدوا من سبيل أمامهم سوى العنف ... عبد السيد بيريرا المرعوب دوماً هو الذي قادهم . وحين استنجد السيد بالحكومة المركزية سرعان ما وصلت فرقة الجنود لإخماد الثائرين . فالثورة معدية وأشبه بالوباء ... وتكفَّل الرصاص بإسكات جميع الأصوات ... جميع الأصوات ! الثورة مثل هذه لا تخمد إلا بالإبادة ...

إنها قصة من عشرات ألوف القصص التي عرفتها أمريكا الشمالية والجنوبية على السواء . وعرفت أبشع منها . أفلام « الوسترن » التي تصدرها أمريكا بالمئات إنما هي تهدئة لوجدانها القلق . قصص الجدري والزهري اللذين زرعا زرعاً لإبادة الهنود لم ينسها أحد بعد . أربعون مليون إنسان في الأمريكيتين على الأقل أبيدوا فليس منهم الآن إلا بقايا في مواقع أشبه بالحظائر أو في الأدغال الموحشة . قصة إيكازا إنما صورت جانباً من المأساة الإنسانية الضخمة . من الجريمة البشرية الكبرى . إنها « مأساة شعب فتح عينيه ذات صباح من سنة ١٤٩٢ فوجد أن حكماً صدر عليه بالإعدام ! » . فهل لها من مكان في التاريخ ؟

الذبيح الأندلسي الأخير

مدريد، العاصمة الاسبانية زرتها غير مرة. ولكن انطباعات الزيارة الأولى ما تزال هي الأجمل والأقسى بين جميع الزيارات. كنت مفتوناً بالحدائق الغابية، بالساحات الكبرى، بالتماثيل، بالمتاحف. أركض طوال اليوم كالفراشة العطشى من مكان إلى مكان كما لو كنت أريد أن أبتلع كل شيء قبل أن يزول... وذات يوم كنت في رحلة سياحية إلى ضاحية رائعة بالحدائق قرب العاصمة. هناك في الكنيسة العظمى المنقورة في قلب الصخر ثلاثمائة متر في مائتين، وفي ارتفاع خمسين متراً تذكرت الشاعر غارسيا لوركا فجأة... وأمسكت بحلقي غصة مريرة تخنقه! عدت حزيناً حتى الموت تلك الليلة. هل كنت في مأتم؟ قد يكون ولكني حين تذكرت عشرات الألوف من المساجين السياسيين ومن المجرمين والمسخّرين الذين حشرهم الجنرال فرانكو سنوات هناك ليقيموا هذه الآبدة الضخمة تذكرت التاريخ الدامي لاسبانيا كله. أي شعب من القساة المرحين هم هؤلاء الأسبان الذين يهللون للتوريرو (مصارع الثيران) وهو يراوغ الثور حتى يصرعه ويمنحونه أذني الثور وذنبه جائزة نجاح؟ الذين كتبوا معظم صفحات الملحمة الدامية في أمريكا بعد أن اكتشفوا أمريكا؟ الذين أقاموا محاكم التفتيش مائتي سنة لإبادة المجد العربي الإسلامي في الأندلس؟

وانتصب أمام ناظري، طيفُ غارسيا لوركا... الذبيح الأندلسي الأخير، ولا أدري كيف؟ ولا من أي جاء؟ يومها آليت على نفسي أن أزور

الزيتونة التي قتل تحتها ذلك الشاعر قرب غرناطة تكفيراً عن زيارتي ... ولأتلمّس هناك دمه الحار السائل دوماً في الوادي رغم مضي السنين الطوال ...

ولقد زرت الزيتونة وتلمست الدم الحار ـــ بلى ! فدم هذا الشاعر الذي أعدمته الفرقة السوداء تحت شجرة الزيتون بأمر الجنرال فرانكو سنة ١٩٣٦ ما يزال ينز لزجاً ، كزيت الزيتون ، لاعناً الدكتاتورية الوحشية والدكتاتوريين على امتداد القارات الخمس والست .

ولد لوركا قبل ٩٦ سنة ١٨٩٩ ولكنه ما يزال في خاطر الناس شاباً يلوث العمامة العربية ليوم قتل قبل تسع وخمسين سنة . وفيما بين مولده ومقتله ما من روح مثلت عروبة الأندلس ، تميز الأندلس الذي تعرف وأعرف كما مثلها هذا الشاعر . إنه ابن غرناطة ... المدينة ـــ الحلم عروس الخواطر العربية ، التي « تتضاعف عليها كل ألوان الطيف الشمسي كما لو كانت تتضاعف على جوهرة بألف وجه » . والتي يتموج في أزقتها العتمة : اللون والموت والحب والموسيقى وتقديس الشرف ! لا تستطيع فهم الأندلس . طبيعتها . جناتها ، التي يضيع فيها الصدى ، إبحار العيون فيها ، قمرها الأخضر أبداً . حمراؤها المتفتحة كالوردة . أنين الفلامنكو على تلالها . وصدى الكاسنييت وإيقاع الكعوب في دروبها والمسافة الشاردة بين القرط والعنق . لا تستطيع فهم الأندلس ، التي ما تزال في خاطرك . إن لم يكن لوركا معك يدلك لا ابن زيدون يغنيك ولا ولادة ولا المعتمد ولا ذلك الرحيل الذي ما يزال تحسبه يسيل في أنحائها .... لا شيء من ذلك يغنيك . إن شئت الأندلس فافتح أحد دواوين لوركا واقرأ بضعة أبيات ...

بيتاً واحداً وكفى !

كل الأحرف المجنحة ، كل الأقمار المكسورة ، كل أشجار التاريخ وأزهار البنفسج لا تفي لتصف الشاعر .

لقد نشأ الشاعر لوركا مجنوناً باللون الذي افتتن به سواء في تنورة الغجرية الراقصة أو في أفق الخينيناريف (جنة العريف) والألبايسين ، وفي مهاوي الوديان الأندلسية كما في أغنياته (الرومانسيرو) والكانسونييرو ... إنه لا يفقد شيئاً من عطره وألوانه حتى في أزقة هارلم النيويوركية السوداء! أو في سفوح غرناطة التي يضيئها قمر « له نهدان من القصدير القاسي ! » أما اللون الأخضر الذي يتسرب في كل قصائده ... فيتساءل (ديكامب) الناقد قائلاً : أليس ذلك تذكيراً بعمامة المشايخ التي كانت تطفو قديماً على كل المآذن الغرناطية؟ وعلى رماح المحاربين المغاربة القدامى؟ أليس هو بصمة الجبرية الإسلامية على أرض السانتيز ما ، هذه المسيحية دون شك في ثلثها لكنها المحمدية في ثلثيها الآخرين؟

أما موضوعة الموت فهي تتغذى لدى لوركا دون انقطاع « من هذا الحزن الأساسي الذي نكتشف فيه واحداً من أكثر الملامح نموذجية في الطبع الاسباني . إنها حاضرة في كل نتاجه . وإنها لتمتزج بأكثر الصور غبطة » . لا ليس لوركا بالرجل المعذب . لكن « القلوب الأندلسية ، في أراضي الجنوب الاسباني تفتش دائماً عن أشواك قديمة ... » قديمة جداً تتمزق عليها !

قصائد لوركا أغان تنبع منها أصوات شعب كامل أصابه الخرس ، لم يعد يتكلم الكلمات التي كان قد جرى نسيانها ، والتي يخلدها الصدى فينا . أما الموت الذي يستحضره لوركا في أغانيه فقديم في ذرات تكوينه.ولكنه يفيض على الأرض أشياء مشمسة تلتمع بالضوء : « الزيتونة على الحائط الأصفر . المغارة الصخرية حيث يشتعل كور الحدادة الغجري . مجموعة المراهقين في حقل صخور . كوكبة المحاربين تمضي في الأفق سوادات لا تدري إلى أين؟ كلها رؤى الموت . إن أدوات الموت تجد مكاناً لها في كل قصائد لوركا . ثم دوماً خنجر يحترق في يد كل أندلسي أصيل ، يضيء الأعماق الرهيبة ويرتجف « في مفترق

الطريق حيث تهتز الشوارع كأنها أوتار » حتى كاتدرائية غرناطة إنما صنعت من مدى ذهبية ... عربية وسهام ولحم معذب وقلوب عذارى . وحتى الحب يتداخل التداخل العميق العميق مع الموت في قصائد لوركا بحيث يستحيل فصل هاتين الموضوعتين الواحدة عن الأخرى . ويجري التعبير عن الحب عبر صور تحتمل غالباً المعنى المزدوج للاثنتين . كتب لوركا إلى الشاعر الكولومبي جورج زالاميا يقول : أُنتِج الآن شعراً بجعل الوردة تتفتح ، شعراً يفر من الواقع ، بانفعال ينعكس فيه كل حبي للأشياء وفرحي أمام الأشياء ، حب الموت وهرجة الموت . حب يا فؤادي . كذا هي الأمور ... » .

والموسيقى أخيراً هي لوركا . هي الوجه الآخر له . هي التي جعلته أسطورة . وليست كل موسيقى . إنها موسيقى الحنان القاسي والفقر والجمال في أراضي الجنوب الأندلسي .

الأندلس وحدها هي التي تتجاوب مع موسيقى لوركا . ثَـمَّ أندلسات عديدة : وحدها أندلس شجر الليمون والأنهار الكبيرة والأساطير ، وأطياف المجاهدين ، وحدها أندلس الكآبة العميقة هي التي تخطر في قصائد لوركا والتي تعبر عن كل ألمها أحياناً أغنية واحدة .

أندلس تجتمع فيها « كل الأندلسات الأخرى مهتزة ومذهبة كأنها قيثارة مفعمة بالصلوات والتنهدات » . لوركا مخلص أبداً لهذه الأندلس الغجرية التي يتردد في أرجائها إلى اليوم تكبير المجاهدين ... وغزلهم المشبوب . يقول :

أتطلع إلى قلق عالَمٍ حزين متحجر

لم يعد يعثر على نبرة نشيجه الأول !

وأخيراً في الريف الأندلسي الذي عاشه لوركا حتى النخاع مفعم بصرخة الشرف . كل قصائده صرخة شرف متصلة . حتى وقفته في نيويورك مع عمال هارلم المنهكين كانت موقف شرف ... حتى مصرعه الأخير كان موقف

شرف ! وستظل أصداءه في التاريخ أصداء شرف متمرد ! إن غرناطة العربية كانت تعيش في أعصابه وشرايينه وكان يعيشها بدوره . وهكذا كان متأكداً من أن الدم العربي يسري في عروقه . ولقد كان يؤمن بالعرب ويحبهم وحين كان طالباً في إحدى مدارس « المرية » وتعني البلد الذي يتمرى في البحر ، والتي ما تزال تحتفظ بتألقها العربي قال لوركا «أحب المرية . إن فيها لأملاً وغباراً من الجزائر ! » وفي سنة ١٩١٧ نشر أول أثر أدبي له بمناسبة الذكرى المئوية للشاعر الاسباني نوريا (وتعني الناعورة) الذي تغنى بعظمة الحمراء العربية . وقد سأله ذات يوم أحد أصدقائه من الرسامين : أتظن يا فديريكو أنها لحظة سعيدة تلك التي غادر فيها آخر ملوك العرب (أبو عبد الله الصغير) مدينة غرناطة فأجاب : لا . أبداً لقد كانت كارثة لنا رغم كل ما يرددونه في الكتب المدرسية . لقد توارت حضارة متألقة . غابت مدنية رائعة لتصبح غرناطة مدينة ضئيلة وفقيرة ...

وحين غادر اسبانيا إلى الولايات المتحدة يطلب العلم لم يستطع أن يبقى في جامعة جورجيا أكثر من عام . صعق بحضارة الأسمنت والظلم والقهر الاجتماعي . لم يرجع من هناك بعد سنة من الإقامة إلا بملحمة من أشهر ما كتب : قصائد في نيويورك . صور فيها حياة حي هارلم والظلم الذي يعيشه السود من أهل نيويورك ! لقد واجه في الولايات المتحدة عنصرية احتقرها بقدر ما أدهشته وحين حاول أحدهم التهكم على هذا الشاعر الأندلسي بسؤاله : من أين أنت قادم ؟ أجاب بخيلاء وكبر : إنني من مملكة غرناطة !

ولقد عرف لوركا أنه ميِّت عن قريب . تنبأ بذلك وكتب :

لأنك مت إلى الأبد
مثل جميع أموات الأرض .
مثل جميع الأموات الذين ينسون

في كذبة كلاب هامدة !

ولكنه لم ينس أنه سيتحدى الموت أبداً صديق لوركا ، الشاعر أنطونيو ما شادو كتب بكائية لصديقه يقول فيها :

انحتوا يا رفاقي للشاعر
لحداً مقدوداً من حجر وحلم
في الحمراء
فوق نبع ينتحب فيه الماء . ويتفجر عطاء أبداً ...
هاهنا اقترفت جريمة قتل في غرناطة ... في غرناطة !
جريمة قتل لروح الأندلس التي لا تموت !

روايات تاريخ الإسلام... والزيف

يسمونها روايات تاريخ الإسلام . وهم منذ تسعين سنة ونيف يطبعونها ويطبعون ثم يطبعون بمختلف التزاويق . ولقد أجريت أكثر من مرة استفتاء بين طلابي عما قرأوا ويقرؤون فيما بين السابعة عشرة والعشرين فوجدت هذه الروايات ثالث ثلاثة إذ هي في الأيدي : كتب المنفلوطي من العبرات إلى النظرات إلى ماجدولين تحت أغصان الزيزفون وكتب جبران : «الأجنحة المتكسرة» وما إليها ، وهذه الروايات . بعضهم قرأ بعضها وبعض قرأ معظمها وبعض استوفاها كلها . وهي اثنتان وعشرون رواية تبدأ بواحدة من جزءين هم فتاة غسان وتنتهي برواية : استبداد المماليك ويضاف إليها رواية جهاد المحبين (على البيعة) ... وفيما بين الأولى والأخيرة يمر تاريخ الإسلام كله من الحجاج وفتح الأندلس إلى شارل وعبد الرحمن إلى العباسة أخت الرشيد والأمين والمأمون وأحمد بن طولون وعبد الرحمن الناصر وصلاح الدين الأيوبي وشجر الدر والانقلاب العثماني ... كل التاريخ الإسلامي موضوع في شكل سلسلة من القصص . صاحب هذه الروايات المتسللة إلى النفوس ، من خلال الصور الإسلامية فيها هو الكاتب جرجي زيدان الذي توجوه أديباً وروائياً بهذه الروايات بالإضافة إلى أنه مؤرخ ! ودخل في وهم بعضهم أنه أديب كبير !!

فمن الرجل؟ وما مبلغ التاريخ في أدبه هذا وما مدى الخيال والكذب الفني ؟ ولا أقول مدى الجهل والدسيسة! جرجي زيدان بيروتي الولادة سنة ١٨٦١ وتربى على يد بعض القساوسة . ثم التحق ببعض فروع جمعية الشبان

المسيحيين في إنكلترا وانتسب إلى الماسونية . وهاجر مع من هاجر إلى مصر بعد الثورة العرابية . وعمل في الجريدة الوحيدة التي تركها الإنكليز للصدور : جريدة الزمان . واستخدمته المخابرات البريطانية كغيره . ورافق حملة السودان وسافر إليها من لندن وعاد فأنشأ دار الهلال وظل يصدرها مجلة للناس ٢٢ سنة حتى توفى سنة ١٩١٤ . وخلال هذه الفترة توثقت علاقاته بأبرز المستشرقين الذين نلوك حتى اليوم أسماءهم نولدكه ، كراتشكوفسلي ، مرغليوت . غولدزيهر ، ولهاوزن ، فانديك ، سخاو ... وغيرهم ! ولقد أراد الرجل أن يجمع التاريخ الإسلامي كله ويضعه في قالب روائي مقبول لعامة القراء . وصدَّق الناس ذلك . ونشرت الروايات وذاعت . ولو كان ثم قانون يحمي الناشئة من الكتب الرديئة لطال القانون منذ زمن هذه الروايات ! إنها « كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده ! » فلا هي روايات ولا هي تاريخ وليس فيها من الإسلام شيء إلا الأسماء والظواهر وإن حملت هذه الكلمات الثلاث على أغلفتها مع صور بعض النساء بالسيف والترس !

هل تراني أظلم الرجل ؟ الذين يحسنون الظن به يقولون إنه كتب رواياته في فترة لم يكن الناس فيها يعرفون شيئاً عن تاريخهم ، وأنه بسطه لهم وصاغه كله في إطار روايات تقبلها الأنفس ويسهل حفظها ... وهؤلاء المحسنو الظن كثيرون . ولكن المثل الفرنسي يقول : إن جهنم مبلطة بأصحاب النوايا الحسنة ولا محل لهذه النوايا في العلم والدين والعقيدة ولا محل لها في الحق !

قد يكون الرجل عالماً ما شئت من العلم أما أن يكون أديباً فليسمح لنا محبوه أن نتوقف قليلاً عند هذه الصفة التي يقحمونه عليها أو يقحمونها عليه ... لا فرق . الروايات الواحدة والعشرون التي تحمل اسمه تكشفه .

١ ـــ ثَـمَّ ظل من الشك من أن تكون له . فإن مؤرخاً يزعم أنه يحيط بالتاريخ

الإسلامي ويكتب الظاهر بيبرس العلي بدلاً من العلائي ويكتب الأداوة بدلاً من الأتاوة وجنبو بدلاً من ينبع والدراية بدل الدرعية وبسر بن قرطاط بدلاً من أرطاة وسالم الخاسر بدلاً من سلم والجاد بن درهم بدلاً من الجعد بن ورهم ومعركة طرباي بدلاً من تربة، من حقك أن تتهمه في العلم بما يكتب وأن تشك في أنه إنما يترجم، عن لغة أخرى لا وجود لحرف العين فيها !!

٢ ــ ثم إن الروايات تأخذ من التاريخ لتبني قصة « لم تكتمل شروطها الفنية » وتأخذ من القصة الشكل لتنشيء تاريخاً يغاير الواقع في كثير من الحقائق. فلا هو أدرك القصص ولا هو أدرك التاريخ إنه استطاع ببراعة ناجحة أن يحول التاريخ الإسلامي إلى صور ذات بعدين. وأن يمحو الحياة فيه ليجعله منطقة سكون ميتة ...

٣ ــ والروايات بعد هذا كلها متشابهة حتى الملل. كلها تدور حول قصة عشق مكرورة دوماً. فقطام في رواية ١٧ رمضان، فتاة الكوفة الفاتنة التي ذاع صيتها في الآفاق وسمع بجمالها القاصي والداني، أخت سلمى في رواية غادة كربلاء التي لم ير مثل جمالها في فتاة قبلها وأخت جلنار في رواية أبي مسلم الخراساني « مضرب الأمثال بالجمال والتعقل » وكلما أزيح لثام عن فارس مجهول أطل وراءه وجه كالبدر يدير الأحداث ...

فجرجي زيدان يسير في موكب من الغواني الفاتنات الممشوقات القوام الممتلئات الأجسام، على وجوه كالبدور أو أزهى. ويتنقل بهن كما يتنقلن هن أنفسهن بين بلد إسلامي وآخر وبين حدث وآخر ليجعل كل أحداث التاريخ الإسلامي من صنعهن؟ يتلثمن ويبارزن بالسيوف والخيل تهدر من حولهن مع صليل الخلاخيل !

وإذا تركت جانباً ما تدغدغه الروايات في صدور المراهقين من لواعج

الغريزة والغرام وارتعاش القلوب في السر ولذعة الكهرباء عند تلامس الأيدي ... وإذا أهملت إلي هذا أنه كان يجعل مسرح الأحداث في الأديرة والكنائس ويعطي الرهبان دور التوجيه والأمانة والرأي السديد . كما يعطي زيت مصباح الدير الصفة العجائبية والبركة ونسيت إلى هذا وذاك ما دأب عليه من جعل الظاهرة الجزئية أو الحادث الفردي حدثاً كلياً وقاعدة دائمة ... إذا تجاوزت كل ذلك لم تستطع أن تحتمل الدسائس كوخز الإبر يوزعها الرجل هنا وهناك ... ولعله كان يؤمن بما سطر وكتب ولكن ...

هل حقاً لم يكن على الساحة عند فتوح العراق والشام مسلم واحد كما تحكي رواية فتاة غسان ؟ وهل حقاً كان سبب نصر المسلمين في فتوح الشام ضعف أعدائهم حين جاؤوا وقد أنهكت الحروب هرقل فحصونه مهدمة وجيوشه مبعثرة وسائر قواته مضعضعة ؟ وهل حقاً بسط الرسول سطوته على الجزيرة العربية ؟ وقبل ذلك هل كان منقطعاً في الجبال ويأوي إلى الكهوف ؟ وهل حقاً لم يترك الرسول قافلة تمر بالمدينة إلا غزاها وفرق أسلابها بين رجاله ؟ وهل حقاً كانت فتوح الشام للاقتصاص من الغساسنة ؟ وإبادتهم عن آخرهم ؟ بل هل حقاً كانت الفتوح الإسلامية للنهب والسلب والفتك والقهر ؟ وهل حقاً ذبح الخليفة أهل الكرخ بسبب جارية ؟ وهل حقاً كان لعبد الرحمن الداخل خباء من النساء ؟ ...

هذه الأشواك التي تنتثر نثراً على الأسطر هي أخطر ما في هذه الروايات الأدبية لأنها تلبس الباطل لباس الحق وتعتمد على سمعة زيدان العلمية في تقبلها وهضمها وتسريبها وكأنها الحقيقة ... في الثوب الأدبي غير الأنيق ...

هنا ، في مثل هذه الروايات ينتهي الفن وتنتهي الرواية التاريخة وينتهي الأدب وينتهي التاريخ ويبدأ شيء آخر ... ليس لي أن أسميه باسمه !

أليس من الحق أن تغمض عينيك وتراجع ذاتك بعد كل رواية تقرأ لزيدان ؟

الصوت الذي أوجد دولة

ما إلى إسرائيل قصدت . ولا إلى الصوت التي اشترته الصهيونية آخر لحظة في هيئة الأمم المتحدة فرجح كفة تقسيم فلسطين سنة ١٩٤٧ . ذلك صوت أجير بيع وأشتري في سوق النخاسة الدولية . وإنما أتحدث عن سطر آخر ليس بينه وبين أكرم النبل أي مسافة . وقد أوجد بالفعل دولة هي اليوم ركيزة من ركائز دول الإسلام ... فهل تذكر تلك الدولة ؟ وهل تتذكر ذلك الصوت ؟ هل تتذكر أنها الباكستان وأن الصوت هو للمفكر الإسلامي الصوفي محمد إقبال ؟

صحيح أن الدولة كانت حلماً أو كالحلم يغشاه الضباب في ضمائر الناس ، كثير من الناس حتى ما بعد الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨ كانوا يستريبون به . لكنها بعد ثلاثين سنة فقط من ذلك كانت حقيقة واقعة تتعامل مع الدنيا وتتعامل معها الدنيا . الدول ككل الأفكار العظمى ، إنها كالحرب والسلام والديمقراطية تبدأ أولاً في الرؤوس . ولقد جمع ذلك الصوت في ذاته ، وفي فترة لا تزيد على ربع قرن مائتي مليون صوت ! وحين وجدت ، من خلال المآسي والفجائع المبكية دولة باكستان المسلمة ... لم يرها صاحب ذلك الصوت . كان قد مات قبل ذلك بعشر سنوات !

محمد إقبال هذا الشاعر تجده ، في دائرة الشعراء الكبار كما في تجده في دائرة المتصوفين الكبار وفي حلقة السياسيين الكبار على السواء. إذا كانت الصوفية ، في بلد كالهند ، معلماً من معالمها الموجهة إلى الله . فإقبال من هذا

الباب ، دخل إلى سدة المتصوفة المصلحين كأحمد السرهندي الجيلاني ، ثم المجتهد شاه ولي الله الدهلوي ونجم الدين كبري والشيخ الهجويري وبابا فريد الذين ابتعدوا بالتصوف الإسلامي عن أدران التصوف البوذي والنيرفانا الهندية . وإذا كان التفكير الديني متنوعاً في الهند مائة دين ودين فقد كان إقبال مسلماً عملاقاً في إيمانه ، وفي إدراكه وفي دفاعه عن التجديد في هذا الدين . وإذا كانت السياسة تشغل كل تفكير الهند في عصره فقد كان السياسي المسموع الرأي . وإذا كان إقبال قد قال ذات يوم لم يبق الكثير من البضائع الإسلامية في حوانيت الصوفية فقد وجد أيضاً بأن الإسلام بحاجة إلى التجديد كما وجد أنه لم يبق الكثير من إمكان التعاون بين الإسلام والهندوس فالحل السياسي للمشكلة الهندية هو الانفصال . إن زهرة العالم تذبل إذا ما ذبلت نفوسنا وقلب الإنسانية يتجمد إذا ما تجمدت ! وكان إقبال يصلي ذات يوم في الفجر كعادته في مقام الشيخ على الهجويري الصوفي الفارسي الهندي ، الرحالة حين خطر في باله الحل : لا سبيل لحماية الإسلام في الهند إلا بإقامة دولة الباكستان ! كل الحلول التوفيقية فاشلة لأن الهندوس كانوا باسم القومية الهندية يريدون اهتضام هذا الدين وإزالته من الواجهة السياسية .

ووقف إقبال ضد القومية الهندية لا لأنها فكرة قومية ولكن لأنها تريد ابتلاع المسلمين بوصفهم أقلية في الهند . . . وهو لا يريد إعطاء الدنية في قومه . بعكس ما هو الأمر في العرب . إن القومية لدينا هي الوجه المكمل للإسلام وتأييدها تأييد للأكثرية العربية . لقد كان إقبال يشهد محاولة هندوة المسلمين . وحين باع الإنكليز بلاد كشمير الإسلامية إلى المهراجا الهندوسي غولاب سينغ زعيم الدواغر الهندوس بما لا يتجاوز سبعة ملايين روبية عرف إقبال معنى ذلك وقال :

باعـوا الـــزراع والـــزرع والأنهار والأشجـــار ...
بالجملـــة باعــــوا شـعبـــــاً بأبخس الأثمان !

رسم إقبال فكره كله في إطار الإسلام . صوفيته ، فلسفته ، علمه ، سياسته شعره كلها تطوف في هذا الفلك الأكبر . آمن أن كل طلب للمعرفة هو في جوهره صورة من صور الصلاة . آمن أن الطبيعة والتاريخ ينبوعان من ينابيع المعرفة البشرية . ودعا إلى استخدام العقل وإلى وحدة الأصل الإنساني ووحدة الشعور بأن الزمان حقيقة واقعة وأنه الديمومة المحض ! استنتج كل ذلك من القرآن الكريم .

ومن خلال هذا الإطار الإسلامي المحض ، حمل إقبال على الحضارة الغربية وعلى آثارها في الهند :

١ ــ لقد أحلت عقلية الغرب ومفاهيمه عن الدين والدولة محل المفهوم الإسلامي رادة الإسلام إلى مفهوم الأحوال الشخصية .

٢ ــ وقد جعلت الناس نسخة من أساتذتهم الغربيين . لم يترك الهنود هويتهم الشخصية بذلك ولكنهم خسروا الأخلاق الخاصة بهم . وها هنا الزلزال العنيف .

٣ ــ عبد الناس المادة مُزيحين عالم الروح جانباً . وبهذه العقلية غير المتوازنة نظروا إلى التخلف الذي يعيشون فيه. وفشلوا في إيجاد الطريـق إلى الخلاص من هزيمة الغرب لهم !

وهكذا ورث المسلمون عصور الانحطاط. وأبقوا عليها لا بوصفها تراثاً يستوحى فيوحي ولكن بوصفه حقائق نهائية. إذا أعادوا النظر فيه فقدوا هويتهم وذاتهم العميقة ! وتسلط بذلك جهلة الشيوخ على التوجيه الديني وساد التخلف .

ويستذكر إقبال تاريخ الهند مع الغرب فيراه سلسلة من المآسي وبخاصة مع المسلمين الذين حملوا وحدهم روح المقاومة للاستعمار . يتذكر مقاومة

الإسلام للإنكليز بزعامة السلطان تيبو سنة ١٧٩٩ ونزول القوى الإنكليزية بكل بلواها على هذا السلطان المجاهد وشعبه حتى خر صريعاً في المعركة وهو يقول: يوم من حياة أسد خير من مائة سنة من حياة ابن آوى! ووقف القائد الإنكليزي فوق جثته يقول: اليوم. الهند لنا! ويستعرض إقبال ثورة المسلمين مع الملك الأخير سراج الدين بهادرشاه.وهزيمة الإنكليز له بأسلحتهم الحديثة، واحتلت جيوشهم العاصمة ونهبتها ثلاثة أيام فأضحت دلهي مدينة الدماء والأشباح وسنابك الخيل وفجائع الرصاص! كانت ثورة إسلامية كما قال الإنكليز ولذلك شنقوا سبعة وعشرين ألفاً منهم في مجزرة دامت سبعة أيام.

وتشتت المجاهدون يعتصمون بذرى الجبال فيما كان أفاضل العلماء يحكمون بالسجون والنفي ومصادرة الأملاك وحرمت الوظائف والمناصب الكبرى على المسلمين...

منذ ذلك الوقت صارت لمسلمي الهند حياتهم الخاصة. جامعاتهم. مناطقهم. تجاراتهم. بدأ الشرخ وظهرت فكرة الانفصال... وفي الحرب العالمية الأولى كانت عواطف المسلمين ومنهم إقبال مع الدولة العثمانية لأنها ضد إنكلترا. وانفصل مولانا محمد علي عن حزب المؤتمر الهندي وانضم إلى الجبهة الإسلامية. التي يتزعمها محمد علي جناح... فأين كان إقبال في هذه المعممة؟ كان في وسطها يحاول تلمس الطريق... حتى اهتدى: لا بد من دولة خاصة بالمسلمين!

شهد تنامي القومية الآرية التي وصلها أصحابها بالبرهمية الفوقية وبالهندوسية الوثنية، وسمع الأصوات التي تنادى بطرد المسلمين الغرباء... بوصفهم أقلية سكانية كبيرة... ورأى المدارس الإسلامية تدمر، والمساجد تهدم. مائة مسجد من مدينة دلهي وحدها تحولت معابد للهندوس والسيخ. والمنازل تهدم فوق رؤوس أصحابها. الكارثة قادمة لا محالة إذن فلا محالة من الانفصال!

وفي حزب الرابطة الإسلامية أواخر سنة ١٩٣٠ في الله آباد ألقى قنبلته على شكل سؤال كان أرسله لمحمد علي جناح في قلب هذا البحران الهندوسي العدواني: هل يمكن تطبيق الإسلام والشريعة الإسلامية؟ وأجاب هذا لا يمكن إلا عندما نقيم مملكة إسلامية حرة. لقد حان الوقت لنطلب هذا المطلب. لا محيد من إيجاد هند إسلامية في مناطق التكاثف الإسلامي في الشمال الغربي والشمال الشرقي من شبه الجزيرة الهندية ... وكتب أحد سفراء إيران: لم يفهم المسلمون إقبال كما لم يفطن إليه الحكام الإنكليز ... فلو فهم الأولون لتحرروا ولو فطن إليه الآخرون لما مات في لاهور بل مات منفياً في جزيرة أندامان ... منفى السياسيين !!

ومات إقبال سنة ١٩٣٨.

بعد عشر سنوات فقط كانت خلالها قد جرت الحرب العالمية الثانية بكل عواصفها.

رفعت الباكستان الإسلامية علمها الخاص في شمال غرب الهند وشرقها! وتلفت الناس يلتمسون صاحب الفكرة فلم يجدوه.

لكنهم وجدوا فكرته ... قد أصبحت حقيقة واقعة!

كاتب من صقلية

قصة اليوم كتبها رجل لم يُعرف عنه أنه كتب قصة أبداً . وقد مات هو نفسه وهو لا يعلم أنه كتب شيئاً خالداً أو حتى شيئاً من تاريخ الأدب . مات دون أن يشهد حروف كلماته مطبوعة على الورق ... ويتناقلها الملايين . لم يكن من البائسين . كلا ولا المحرومين المعدمين . إنه أمير وابن أمير عاش صامتاً متأملاً ومات كذلك . ولعله في فترات فراغه ملأ هذا الفراغ بكتابة شيء هو بين المذكرات والقصة والتاريخ ... وترك الأوراق في درج مكتبه . وبعد أن مات خرجت الأوراق مع نبش مخلفاته.ووجدت طريقها إلى بعض الناشرين . وما إن نشرها حتى قفز الميت من بين الهالكين ليصبح الأديب الأول في إيطاليا ... ولكن بعد الموت !

إنه دي لامبيدوزا !

بعنوان (القط البري) كتب تاريخ صقلية ، في رواية ! ولا نتصور أنه تتبع هذا التاريخ منذ الفينيقيين إلى الإغريق والرومان والبيزنطيين ثم العرب ثم احتلال النورمنديين وحكم الألمان والفرنسيين والاسبان والإنكليز ثم الفرنسيين مرة أخرى قبل أن تنتهي جزءاً من إيطاليا في القرن الماضي ... لا ! فذلك تاريخ يطول ويمل.لعب فيه موقعها الاستراتيجي بين حوضي البحر المتوسط الدور الأول على الدوام . وكانت فيه صقلية ممراً للقوى ، كل من في المتوسط وما حوله مر بها فترة وترك فيها شيئاً منه ولم تملك زمام نفسها مرة . ولكن الكاتب لامبيدوزا كان يحاول كتابة تاريخ أسرة ، من خلال الفترة الأخيرة ، للتاريخ

العقلي ! فترة التحاقها بإيطاليا وتوحدها منها وفي خاطره كل تاريخ الجزيرة الملون الطويل ! .. ولكن من خلال آلامها التي لم يشعر بها أحد !

والمؤلف يبدأ بتاريخ جده أمير سالينا وإن كان يصوره بصورة نفسه وهو خارج من الكنيسة مع أسرته وكأنه فرغ من هم ثقيل متجهاً نحو حدائق قصره يفكر بنبلاء همومهم تبدأ عند الملوك . وهذا النبيل همه الملك . إنه لا يعترف به . لا يخطر في باله إلا في هالة من الاحتقار . قد يكون أبوه فرديناندو الثاني شريراً أنانياً ولكنه يحترق في أعماقه . لقد أحسن استقباله ذات مرة وسأله عن أسرته ... وحين خرج من عنده كان يفكر بأنه الآن نبيل.لكن حين تعلن الجمهورية فإنه لن يكون أكثر من السنيور سالينا فقط !

بعد العشاء طلب عربة ليذهب إلى بالرمو . لم يجرؤ أحد في القصر أن يسأله إلى أين ؟ أخذ معه الأب بيروني وكان ضيفاً على العشاء عنده . لتغطية مغامرته والقسيس يعلم ذلك لكن أحداً منهما لم يصارح الآخر . وحين وصل بالرمو أرسل الأب لزيارة الدير ومضى لسبيله .. وفي الصباح عادا إلى القصر ...

وزار النبيلَ ابنُ أخته تانكريد فالكونيري الشاب المرح وأخبره ... إنه ذاهب إلى حرب العصابات في الجبال قال : إن تطورات كبرى قادمة في الطريق.صحيح أن كثيراً من الملوك يطمعون في صقلية . لكن الوقت لم يعد وقت الملوك ! ووافقه خاله النبيل على ذلك وفي قلبه حزن كبير . كان يشعر أن المستقبل القريب هو لغاريبالدي زعيم الثوار المحاربين لتوحيد إيطاليا وأن كل النبالات وألقاب النبالة ذاهبة إلى الجحيم ...

وقال في نفسه : لن يرقص القط البري بعد بين الناس ... لقد مات بدوره !

لقد مات النبيل وهو حي وماتت إمارته وهي ما تزال على الأرض ...

ويأتي مندوب الحكومة الاتحادية في تورينو يعرض عليه أن يكون عضواً في مجلس الشيوخ ويسأل النبيل المندوب :

ـــ لا أعرف ما مجلس الشيوخ . هل هو لقب شرف أم وسام أم عمل ؟

ويشرح له المندوب الكلمة فيرفض النبيل ويقول :

ـــ في تاريخنا تعلمنا الكثير . تعلمنا كيف نقطع الشعرة إلى أربع شعرات بالطول ! وإني أوافق على الانضمام لمملكة إيطاليا لكنـي لست على استعداد لأن أبني صرحها ! منذ نزل غاريبالدي في الجزيرة تصرفتم بأمور كثيرة دون استشارتنا. فما معنى أن تطلبوا الآن إلى رجل من الطبقة المطرودة أن يكون مستشاراً بينكم؟ نحن شعب عجوز . منذ خمسة وعشرين قرناً ونحن نحمل على ظهورنا حضارات غريبة مستوردة . . .

ـــ ولكن صقلية الآن جزء من وطن حر . .

ـــ قد يكون . ولكنها أشبه بعجوز تطوفون بها في كرسي على عجلات ، في معرض لندن الدولي . ترى كل شيء ولا تفهم شيئاً ! النوم ، هذا ما يريده شعب صقلية. لذته الكبرى هي النسيان . نحن لا نفكر في شيء سوى النيرفانا والعدم . لا نخترع الآن سوى الأساطير لكياننا الميت . . . صقلية طبيعة قاسية هي شكلت نفوسنا على شكلها . الآثار التي تملأ الجزيرة ، والتي نسميها حضارة ، كلها غريبة أتى بها الآخرون . أما نحن فليس لنا إلا صيف طويل مظلم أقسى من شتاء روسيا مع شح المياه فلا قطرة . ثم شتاء قاس تجرف الأمطار والسيول فيه كل شيء . . . نحن توتر دائم . والحكومات التي تحكمنا والسلاح في يدها نحن نواجهها ، بطبيعة هي الكره كله والرفض كله لكل شيء ! حتى أنفسنا . . .

وتمضي القصة لتصل في النهاية إلى مغزاها الأخير : اندثار النبلاء ، شبح الموت ، في الواقع يخيم على القصة من أولها إلى آخرها . فصقلية بلد الموت ،

والنبيل نفسه يظهر فيه كأنه شبح من الماضي. ينحني للأحداث ويتقبلها على مضض وتوتر ولكن في تسليم الميت لا محالة. لقد انتهى مع انتهاء طبقته. وهو يكتب مذكراته وكأنه مقيم في برزخ العدم. وحين تجتمع الأسرة كلها من حوله وهو على سرير الموت كان في منتهى الصفاء والهدوء والكل من حوله نحيب وبكاء. لم يكن هو الذي يموت ولكن عصره كله، العصر الذي كان منذ زمن يدخل عالم الموت ... وتستطيع أن تتوسع في القصة ما شئت. فمن ذا الذي لا يعتبر هذه القصة أصدق القصص عن موت طبقة النبلاء في أوروبا؟ ومن ذا الذي لا يمكن أن يرى فيها، في الوقت نفسه، صورة من عصرنا نحن الذي مضى ومن العصر الذي جاء بكل هزاته وجنونه؟

إنها ليست صقلية هناك ولكنها قصة التجدد الأبدي في الحياة إنها الرمز لكل العصور التي تموت في حين تحل محلها عصور أخرى! ..

وفيما كان النبيل منصرفاً إلى هوايته في بحوث الفلك، بمرصده الصغير دخل عليه وكيله المنافق. ثم دخل عليه موظف آخر وكان يعرف أنهما لصان وإنهما ينتظران نجاح الثوار للانقضاض على بعض أملاكه. وقال له الموظف بصراحة:

ـــ بعد الانقلاب ستتحسن الأحوال سنكون أحراراً. كلنا سنكسب من الانقلاب إلا القسس ...

ولكن النبيل كان يحس انهياراً في داخله. إن عصره في غروب. والصمت المخيم هو الصمت الذي يسبق العاصفة. واهتز الصمت لفترة حين نزل غاريبالدي بثمانمائة من جنوده في الجزيرة قرب مرسالا. وارتكبوا كل أشكال النهب والقتل. لكن النبيل لم يكترث كثيراً للأمر حين قرأه في صحيفة البلدة وذهب يصلي مع أسرته ... ومضت ثلاثة أشهر بعد ذلك ولا جديد: النبيل يتنقل بين ضياعه. والفلاحون على مسيرتهم منذ إيطاليا الموحدة المثلثة الألوان.

وبعضهم كان يتجمع في الطرقات فيهتف ويرقص ... ولا شيء غير ذلك وهبط تانكريد من الجبال يزور خاله فإذا هو يحمل رتبة رائد. وأصدرت حكومة الاتحاد أمراً بالاستفتاء العام ليقرر أهل صقلية مصيرهم بأنفسهم.وكان على النبيل أن ينصاع من باب المظهر على الأقل فيذهب إلى مركز الاستفتاء...

ومع أن حكومة الاتحاد أصدرت أمراً بإلغاء الألقاب فإنه استقبل هناك كنبيل وخاطبه الجميع بلقب سموكم فوضع ورقة بيضاء، وكان شعار أسرته «القط البري» الشبيه بالنمر ما يزال معلقاً إلا أنه شهده وكأنه يتحول قطاً ناعم الملمس كالكلاب الأنيسة ويمثل منتهى الخمول! والاستخذاء! وفي المساء جاءه وكيل إحدى ضياعه وقص عليه قصص العمدة الجديد الذي كان يتصيد فرص جمع الأموال تصيد الصقر للفرائس: يقرض النبلاء المفلسين ثم يستولي على ما رهنوه لديه من عقار ويخزن القمح ليبيعه بالثمن الفاحش،حين هرب الفلاحون إلى الجبال مع نزول غاريبالدي في الجزيرة. وقد تقرب إلى الثائرين بماله فعينوه عمدة لتتسع دائرة استغلاله ويتضخم ماله أضعافاً.

وجاء الأب القسيس ذلك اليوم إلى النبيل يخبره أن ابنته كونشيتا تحب تانكريد وتستأذن أباها في أن يوافق إن جاء تانكريد يخطبها.ولكن النبيل يلاحظ أن ابن أخيه يكاد يأكل بعينيه فتاة أخرى استنجد النبيل، والقسيس معه، بكل القديسين وهما يتأملان حسنها الرائع!

وحين جاء تانكريد إلى خاله يرجوه خطبة هذه الفتاة له فلم يجد النبيل سوى أن ينصاع لرغبته ويحترق مهملاً دموع ابنته ولوعتها! كان هذا الزواج في نظر الأمير لقاء بين الطبقة التي تغيب والطبقة التي تشرق، بين النبلاء والطبقة البورجوازية الصاعدة. وإذا لم يقبل فمن أين سيعيش النبلاء؟ الدم الأزرق لم يعد له وزن في موازين الناس! وظهرت نتيجة الاستفتاء.ووقف العمدة على شرفة قصر البلدية يعلن النتيجة: عدد المقترعين ٥١٥ الذين قالوا نعم للوحدة

٥١٢ الذين قالوا لا صفر . وخلا النبيل في حجرته يتذكر جموع المنافقين الذين زاروه مؤكدين أنهم سيصوتون ضد الوحدة . الجميع أكد له ذلك وها هو ذا يجد بالعكس أن إيطاليا الموحدة تولد تلك الليلة ! ومات شيء في داخله .

تاريخ صقلية غير الرسمي ولكن الحقيقي والفاجع في فترة توحيد إيطاليا سنة ١٨٧٠ وحده كتبه : دي لامبدوزا ... ومات وهو يجهل أنه كتبه .

الأصبهاني وكتاب الأغاني

لبعض الكتب في الأنفس وقع معازف الجن أو عربدة الربيع، أو رنين الأودية البعيدة. هذا على الأقل ما أشعر به، وما قد تشعر به أنت، حين تسمع باسم كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني. الكتاب تحدى بعنوانه المتزمتين في عصره.ومد لسانه فيما احتواه للأدب التقليدي.وتجاوز بضخامته كتب الأخبار والتاريخ. كان في أربعة وعشرين مجلداً!

مضى عليه الآن أكثر من ألف سنة ومع ذلك فما تزال الزنابق تزهر على أطرافه.وما يزال كثير من الناس عكوفاً على دفء سطوره وزغردة الطنابير والأعواد فيه... واسم صاحبه قد يوحي بأنه فارسي، ولكن القلائل هم الذين يعرفون أن الرجل من صلب قريش وأن نسبه أموي وأنه حفيد مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين. والقلائل أيضاً يعرفون أنه كان شيعي الهوى رغم أمويته، حتى لقد ألف، فيما ألف، كتاباً ضخماً في مصارع الطالبين، آل البيت! ولا نعرف كيف انتقلت أسرته إلى أصبهان ولا السبب في ذلك ولا كيف انقلبت إلى التشيع ولا السبب في ذلك، ولا كيف نجا أجداده من انتقام العباسيين الأوائل والقتل.ولا السبب في خمولهم بعد ذلك فلا ذكر ولا خبر... لكنا نفاجأ بأبي الفرج الذي ولد سنة ٢٨٤هـ / ٨٩٧ ميلادية ينبغ فيهم، من بغداد بعد أن درس فيها على كبار الشيوخ ويقول معاصره التنوخي إنه كان يحفظ من الشعر والأغاني والأخبار والآثار والأحاديث المسندة والنسب ما لم أر قط من يحفظ مثله. ويحفظ دون ذلك من علوم أخرى كاللغة والنحو

والخرافات والسير والمغازي ونتفاً من الطب والنجوم والبيطرة والجوارح ... وواضح أن الرجل كان مثقفاً على طريقة عصره . وأنه كان يحسن إدارة الحديث والسمر في مجالس الندمان.فقد ظل على « منادمة » الحسن المهلبي وزير المعز البويهي سنين طويلة . كما كان لا يترك سوق الكتب . وكان أصدقاؤه إذا طرقوا بابه لا يجدونه لأنه يكون في دكاكين بعض الوراقين والنساخين يستمع إلى الحديث الدائر في الدكان المجاور حول بعض الشعر ويتدخل في الحوار بذوقه الفني ...

ومع أن هذا الذوق لم يكن مرهفاً في هيئة الرجل المهملة المنفرة إلا أنه كان في غاية الإرهاف من الأدب والشعر . تشهد على ذلك مؤلفاته التي تزيد على الثلاثين ومنها كتابه الأغاني الذي قضى — كما يقول مبالغاً — في إعداده خمسين سنة ! وحين قدمه إلي سيف الدولة الحمداني أرسل إليه بألف دينار واعتذر إليه.وسمع به الحكم الثاني الأموي في الأندلس فاقتضاه نسخة ودفع إليه مثل ذلك.ويسمع بذلك الصاحب به عباد في الري فيتهم سيف الدولة بالبخل والشح وانتقاص الرجل حقه ...

والكتاب في واقعه كتاب أغان . الأغاني سداه ولحمته . قالوا إنه بناه على مائة صوت اختارها إسحق الموصلي لهارون الرشيد.فهيكل الكتاب قائم على هذه الأصوات المائة . وعلى ترجمات أهل هذه الأصوات من الشعراء والمغنين والمغنيات ، والجواري ولياليهن وإيقاع الأوتار فيما بين دن وتن !

أجمل ما في الكتاب أنه معاصر لكل عصر . مقبول القراءة لكل عمر . هل ترى إلى هذا قصد صاحبه ؟ من يدري لكنك بكل تأكيد ستجد نفسك إن فتحت أول دفة منه أسير حكاياته التي يرويها فماضياً معها في القراءة فمستغرقاً فيها تنتقل من شعر إلي حكاية ومن خبر إلى سمر ومن طريف إلى

أطرف ... غارقاً لا تكاد تضيق . ولكن هل هذا كل شيء؟ أبداً . إن كتاب الأغاني مكتبة عصر كامل في كتاب أو يكاد . ويقولون إن الوزير ابن عباد ، وهو من هو في قمم الأدب ، كان يصطحب معه في حلِّه وترحاله مكتبته التي يحملها أربعون جملاً فلما ظهر كتاب الأغاني استغنى عنها جميعاً . استبدل بها هذا الكتاب وكفى ! ... ودفع بعضهم عشرة آلاف درهم وهي في ذلك العهد مبلغ جسيم ثمناً لنسخة منه.واعتبر البائع مغبوناً لأن الكتاب أثمن.وكان عضد الدولة يصحب الكتاب حيث قصد جاعلاً منه السمير والنديم ... لعله كان ، في عهده ، تلفزيون العصر ، ولهذا تناقله الناس بكثرة واضحة وسلم لنا كله رغم ضخامته ...

هكذا صار الكتاب بسرعة جزءاً من الرصيد الذهبي للأدب العربي الكلاسيكي باعتباره لوحة تاريخية واسعة لا للأغنية العربية ولا للشعر العربي فقط ولكن أيضاً للصورة التي رأى ونظر فيها الناس جانباً من الواقع . في الحياة الاجتماعية الاقتصادية وأحياناً السياسية التي يعيشونها في تلك الفترات . فيها الفجائع والمضحكات والمشاهد ومواقف من الحياة العامة أو مما كان يحاك من الدسائس وراء جدران القصور وفضائحها ... بالإضافة إلى نماذج النثر العربي ونظم العادات والآداب يومذاك .

وإذا كان غنى الكتاب يرجع لدى بعض الناس إلى قصصه المسلي فهو يقرأه على هذا المذهب فإنه إنما يحتوي في الواقع على الصورة الفوتوغرافية لجانب هام من حياة المجتمع الإسلامي جانب التسلية والأنس في القرون الثلاثة الأولى للإسلام ولما قبلها . وثم فيه قسط واسع من حياة الأرستقراطية والجواري والأغاني وحياة اللهو والمؤانسة والإمتاع التي لم يصورها المؤرخون أو لم يأبهوا لها فجاء كتاب الأغاني يكملها مقدماً ــــ ودون أن يقصد في الغالب ــــ صور العادات

والتقاليد والمآكل وعلاقات طبقته الخاصة العليا بعضها ببعض.وعلاقاتها مع الطبقات الأخرى . إنه إحياء لذلك الجانب الملون من حياة المجتمع الإسلامي بكل ما فيه من صلصلة الخلاخيل ورنين الدنان ولهيب الكوانين على السواء !

ونفتح أحد مجلدات الأغاني ، على ما اتفق ، وليكن الثالث عشر ثم نفتح صفحة منه دون تعيين فذلك لا يضير الكتاب ، ونقرأ شيئاً عن العتابي كلثوم بن عمرو الشاعر الذي كان منقطعاً إلى البرامكة ونقرأ :

كلم العتابي يحيى بن خالد بن البرمكي في حاجة بكلمات قليلة.فقال له يحيى : لقد نذر كلامك اليوم وقل.فقال العتابي وكيف لا يقل وقد تكنفني (أي أحاط بي) ذل المسألة وحيرة الطلب وخوف الرد ؟ فقال البرمكي . والله لئن قل كلامك لقد كثرت فوائده . وقضى حاجته . ونتابع القراءة فنجد رواية عثمان الوراق قال : رأيت العتابي يأكل خبزاً على الطريق بباب الشام فقلت له ويحك أما تستحي ؟ فقال لي : أرأيت لو كنا في واد فيها بقر كنت تستحي أو تحتشم أن تأكل وهي تراك . قلت : لا ! قال فاصبر حتى أعلِمَك أنهم بقر . فقام فوعظ وقص ودعا حتى كثر الزحام عليه.ثم قال لهم ؛ روى لنا غير واحد أنه من مد لسانه فأصاب أرنبة أنفه ، لم يدخل النار . فما بقي واحد إلا وأخرج لسانه يومىء نحو أرنبة أنفه كما تفعل البقر ، ويقدره حتى يبلغها أم لا . فلما تفرقوا قال لي : ألم أخبرك أنهم بقر ؟ .. وقيل للعتابي : لو تزوجت ! فقال : إني وجدت مكابدة العفَّة أيسر علي من الاحتيال لمصلحة العيال ... ونتابع القراءة لنجد المأمون يمسك بيد العتابي العجوز وهو ينهض ...

ونفتح صفحة أخرى من مجلد آخر من الأغاني ولتكن صفحة سلم الخاسر من المجلد التاسع عشر . والرجل بصري وكان من رواة بشار بن برد ومن الشعراء المجيدين ولقب بالخاسر لأنه ورث عن أبيه مصحفاً فباعه واشترى بثمنه طنبوراً . وقد خاصمه بشار يوماً حين قال بشار :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته   وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

فسمع أن سلماً قال :

من راقب الناس مات غماً   وفاز باللذة الجسور

فقال بشار : سار والله بيت سلم وخَمَل بيتنا !! لقد اختصره لفظاً وقربه معنى ... وكان سلم صديقاً لعاصم الغساني وكان يبره . فلما حضرت الوفاة عاصماً قال إني ميِّت ولا ورثة لي وإن مالي مأخوذ فأنت يا سلم أحق به . وكان خمسمائة ألف درهم فقال أبو العتاهية :

تعالى الله يا سلمَ بن عمرو   أذل الحرص أعناق الرجال

هب الدنيا تصير إليك عفواً   أليس مصير ذاك إلى الزوال

فغضب سلم وقال : ويلي على الجرار الزنديق زعم أني حريص وقد كنز البدور وهو يطلب.وأنا في ثوبي هذين لا أملك غيرهما ؛ وكتب إلى أبي العتاهية :

ما أقبح التزهيد من واعظ   يزهِّد الناس ولا يزهد

لو كان في تزهيده صادقاً   أضحى وأمسى بيته المسجد ..

وكان المهدي يعطي مروان بن أبي حفصة وسلماً الخاسر عطية واحدة فكان سلم يأتي باب المهدي على البرذون الفاره قيمته عشرة آلاف درهم بسرج ولجام مفضضين ولباسه الخز ورائحة المسك والطيب والغالية تفوح منه. ويجيء مروان عليه فرو قصير وقميص كرابيسُ قطني وعمامة وكساء غليظ وهو منتن الرائحة . وكان لا يأكل اللحم حتى يقرم إليه بخلاً . فإذا قرم أرسل غلامه فاشترى له رأساً فأكله . فقال له أحدهم : أراك لا تأكل إلا الرأس فقال نعم : أعرف سعره فآمن خيانة الغلام ولا أشتري لحماً فيطبخه فيأكل منه . والرأس آكل منه ألواناً : فلون من العينين ومن الغلصمة لون ومن الدماغ لون ...

كم ذا يا ترى في هذه الصور من التاريخ ما هو أبلغ بياناً من التاريخ نفسه ! .. أليس الأصبهاني في ذلك مؤرخاً وإن سموه بالأديب ؟ ألم يؤرخ لعصره من الداخل ، أصدق التاريخ ؟

ركوب الأسطورة... إلى الغابة

منذ سنين حين زرت كيتو ، عاصمة الأكوادور ، كان من همي أن أزور النصب التذكاري المقام في شمالها عند مرور خط الاستواء . قادني إليه في السيارة شاب صامت كأنه أخرس ولكن عينيه تلتمعان كأنهما تحملان أثقالاً من الكلام . الحزن الذي يكسو وجهه يحكي أنه غارق في أعماق ذاته ، غارق لا يفيق على شيء إلا إسفلت الطريق . أثناء الاستراحة عند النصب التذكاري وفيما كان بعض الرفاق يلتقطون الصور لمحت في يده كتاباً يقرأ فيه . ومن عيوبي أن تثير فضولي الكتب . أن تحركني للنظر فيها ولو على العنوان لئلا يفوتني ما لا أعلم . وتناولت الكتاب من يده فإذا عنوانه مبتكر « دموع المغلوبين » وكان موضوعه أكثر إثارة : إنه يجمع أساطير البيرو قبل كولومبوس وصاحبه السفاح كورتيز ! وصاحب الكتاب وهو خوسيه لويس ماريانغي أثار فيه عهود الإنكاس . أباطرة الانكاس قبل الغزو الدموي الأوروبي !

وحللت الطلسم عن شفتي الشاب حين جررته للحديث عن بعض هذه الأساطير .

ــ وأي شيء تجد فيها ؟

ــ أجد صورة الحاضر ، أجد صوتي ولون خواطري .

ــ وأي أساطير الكتاب أعجبتك ؟

وأخذ يحكي أسطورة أعرفها من أساطير الإنكا . ولكن شاقني أن أسمعها منه . الكتاب يسميها أجمل أساطير المعذبين.ولعلها كذلك . إنها تجري

أيام الإمبراطور بتشاكوتيك الذي كان يحكم من عاصمته كيتو شقة هائلة من الأرض ما بين كولومبيا حتى أقاصي البيرو . كل سفوح جبال الآند والوديان والغابات المطلة على المحيط الهادي كانت مرعى خيله وملعب أقواسه ورماحه . قائده المسمى أونيتاي . يا لزهو الشباب فيه ويا لهزة الكبر في أعطافه ! نقطة ضعفه أنه كان عاشقاً لابنة الامبراطور نجمة النهار.وكانت الفتاة تحبه.لكنه لا يجرؤ على طلبها من أبيها الجبار المعتز بدمه الملكي وبأنه ابن الشمس ! وقد شعر الأب بالعلاقة المحرمة بين ابنته والبطل أونيتاي فأبعدها عن قصره إلى كهف مظلم في الجبال . لدى حيث لا يعلم أحد ! . .

والتقى أونيتاي مرة بالكاهن الأعظم . وكان هذا الكاهن ذا عينين تخرقان الصخر وتهتكان حتى أسرار القلوب . ولم يكن يجهل منذ زمن قصة الهوى بين الاثنين ولا أسرارهما . وحين رجاه أونيتاي أن يتوسط لدى الإمبراطور للزواج من ابنته لباه على الفور.وذهب يرجو الأب الجبار الموافقة . ولكن الامبراطور انتفض كمن لسعته ألف أفعى .

ــ محال ! محال . أن تتزوج نجمة النهار رجلاً من أبناء الشعب ولو كان القائد العظيم أونيتاي . وكيف تطلب أن أدنس دمي الملكي المتحدر من الشمس بدمٍ شعبي ؟ خذوا الأميرة من كهفها المظلم إلى كهف بأقصى الأرض . . .

وتدخلت الامبراطورة. ركعت عند قدمي الامبراطور . بكت . توسلت . فلم يفدها ذلك شيئاً . وأبعدت الابنة بعيداً بعيداً .

وذات يوم عقد الامبراطور مجلس الحرب وأعلن أنه سيغزو مملكة جاره شيانتاي في بوليفيا . وقد عهد بالمهمة إلي قائده أونيتاي . ومنحه ابتسامة هي أقصى ما يمكن أن ينال بشر من جلالة الامبراطور . ورأى أونيتاي في الابتسامة ما شجعه فطلب إلى سيده الامبراطورة إذناً بحديث فردي معه . وما أن خلا

المجلس حتى تهالك القائد عند قدميه يرجوه أن يمنحه الشرف الإلهي بالزواج من نجمة النهار وضرب الامبراطور كفاً بكف !

ـــ ما بقي إلا هذا ! مجرد التفكير في ذلك إهانة للشرف الملكي . إهانة للملك . جريمة لا يغسلها إلا دمك . اذهب الآن وائتني بملك شيانتاي لأحرقه حياً ثم أسمح لك بالمثول أمامي لتقتل نفسك بحربتك هذه جزاء إهانتك !

لم ير أونيتاي طريقه وهو خارج . جرح أقسى الجرح في كرامته . في إنسانيته . فيما لا يدري من صدره . ومع أن منافسه القائد عين الحجر قد جاءه في الليل يحرضه على الثورة لعل الإمبراطور يقتله ، إلا أنه قال لهذا المنافس :

ـــ لست إلا سيف الامبراطور . ولست أملك إلا الطاعة له !

ـــ تنتصر وترجع ثم تقتل نفسك أمامه .

ـــ إذا طلب مني ذلك فعلته . وماذا يبقى لي بعد افتقاد نجمة النهار وقد يقتلها !

ـــ لن يقتلها . لن يقتلها إنه يريد أن يزوجها من ملك شيانتاي بالرغم منه . وما الحرب التي يشنها إلا لهذا الغرض يزوجه إياها ثم يقتله في الصباح التالي . ألست تذكر أن ملك شيانتاي قد أهانه حين رفض هذا الزواج من قبل ؟ أنت قلب طيب يا أونيتاي . ولكن الأمر واضح أنت بين أمرين :

إما أن تلجأ إلى قبيلتك الكبيرة وجبالها المنيعة وتثور . وإما أن تأتي بملك شيانتاي ليتزوج حبيبتك ، ثم تنتحر ؟

قبل الصبح كان أونيتاي قد حزم أمره وهرب إلى جبال أهله وأعلن الثورة . وأسرع منافسه إلى الإمبراطور يخبره بالخيانة الكبرى . فأهدر دم أونيتاي وكلف القائد المنافس أن يأتيه . به ليحرقه حياً ... واجتمع إلى أونيتاي

كل الأمراء الملدوغين من الامبراطور . وصاروا درعاً وأعواناً له وسماه الناس ملك الجبال . وفرحوا به لعله يخلصهم من جبروت الامبراطور . وتـوَّجه كاهن جبال الكونكو إمبراطوراً لا باسم ابن الشمس ولكن على أنه ابن الشعب وصارت الأرض لامبراطورين !

وجاء الامبراطور يوماً بقائده المنافس فأهانه وعيره بالجبن عن ملاقاة أونيتاي . وطلب إليه أن يحاربه على الفور ويأتيه به ثم ينظر في العقوبة التي يوقعها عليه جزاء جبنه . وذهب القائد المنافس وسقط صريعاً في المعركة الفاصلة بين القائدين في أسفل الجبال .

... ومرت السنوات !

على مقربة من كيتو العاصمة كان ثم دير يعرف بعذارى الشمس تودع فيه المولودات اللواتي تَلدهن سفاحاً أميرات البيت الملكي . فالذكور كانوا يقتلون لئلا يفكر أحد منهم بطلب الملك . يزعمون أنهم يصبحون شياطين ويجلبون العار للبيت الملكي الإلهي . في ذلك الدير كان الكاهن الأعظم قد زوج أونيتاي من نجمة النهار بعد أن أتى بها من كهفها السحيق وأثمر الزواج بنتاً أبقاها الكاهن الأعظم مع أمها نجمة النهار ، دون أن يعلم أحد بالسر الكتيم . سماها إيما سوماي . واشترط عليها ألا تكلم أبداً ابنتها أو تكشف سرها . فكانت تنتحب ليل نهار ويسمع لنحيبها صدى تبكي معه الجبال ...

وجاء يوم لحق فيه الإمبراطور الرهيب بتشاكوتيك بأبيه الشمس . توفي. وجاء ابنه فأتاه الكاهن الأعظم يرجو أن يصالح أونيتاي . فقبل شريطة أن يأتي صاغراً إليه طالباً الصفح.وأرسل بذلك رسولاً إلى أونيتاي ولكن هذا القائد أبى . قال للرسول :

ــ أبلغ مليكك بأنه ليس من نسل الشمس ولا القمر ولكنه واحد من الشعب . واحد من هؤلاء الناس الذين يترفع عليهم ويتعالى . أعلن ذلك بأعلى صوتك أكن في خدمتك.وحين تلا الرسول الجواب على الامبراطور

فوجىء به ويسقط صريعاً بسكتة قلبية ... وفرح الناس للخبر العظيم . فك إسارهم ونادوا بأونيتاي إمبراطوراً عليهم . وجاء الكاهن الأعظم بهدية إلي الملك الجديد . زوجته نجمة النهار وابنته سوماي .

وقلت لمحدثي بهذه الأسطورة الطويلة . ولكنني أعرف نهاية هذه القصة على شكل آخر . حدثوني عنها في بوغوتا في الشمال . قالوا إن الامبراطور الابن كان من اللطف والكرم بحيث لم يصمد له أوبتاي فجاءه معتذراً وتزوج أخته وصارت إيما سوماي رمز الحب ووحي الشعراء في البلاد .

وقال محدثي : صحيح جداً هذا . ولكن صاحب الكتاب خوسيه لويس ماريانغي أعطاها هذه الخاتمة . ألست تراها أجمل ؟

وقلت : ألست ترى لها دورها في ظل الدكتاتورية التي تعيشها البلاد ؟

وأجاب : أليست هذه الأسطورة هي واقعنا اليوم ؟

وأمنت على الجواب بهز رأسي وأنا صامت . هل أستطيع أن أنكر ذلك وقد حملتني الفِكَر إلى البعيد البعيد !

ألم تحك الأسطورة أحسن ما يحكى صراع الجبروت مع قرى الشعب في ذلك العهد السحيق ؟

أديب وإمبراطور قديم

الذين شدوا شيئاً من الأدب الفرنسي يعرفون دون شك ألبير كامو ، الأديب الفرنسي الذي اختطفه الموت في مطالع سنة ١٩٦٠ وهو في السادسة والأربعين بعد أن نال جائزة نوبل قبل ذلك بثلاث سنوات ... مر كالشهاب في الحياة . ثم انطفأ في حادث سيارة سخيف .

ولد الرجل في الجزائر ، وفي مدينة وهران بالتحديد . ودرس هناك وتقلب بين بيع قطع السيارات والكتابة في المحافظة . وتزوج وانفصل عن زوجته . وانضم للحزب الشيوعي . ثم نفر منه . وأنشأ مسرحاً ثم أغلقه . كل ذلك قبل الخامسة والعشرين . ودخل حركة المقاومة الفرنسية . وأنشأ جريدة (كومبا) لسان المقاومة ... وفي السنوات الخمسة عشر من آخر حياته كتب كل ما كتب تقريباً . ودخل بما كتب ميدان الأدب فاتحاً وبين أدباء الصف الفرنسي الأول ...

ألبير كامو هذا اختار لإحدى مسرحياته شخصية امبراطور روماني مجنون أو شبه مجنون هو كاليغولا . وكاليغولا في التاريخ امبراطور ما انفك يحكم روما الامبراطورية كالحصان الجموح قرابة أربع سنوات . بعد مولد السيد المسيح بقليل وبعد موت أغسطس الامبراطور العظيم . ولكن ما هي هذه الامبراطورية ؟ كانت الدنيا كلها . وتمتد ما بين أطراف الخليج العربي وبين إنكلترا . وتبتلع في الوقت نفسه باقي أوروبا كلها وشمالي أفريقيا من المغرب حتى العراق . وكانت هذه هي الأرض المعروفة يومذاك إذا أضفنا إليها الفرس والهند وأطياف الصين . وكما كانت رهيبة تلك المسافات التي يحكمها الرجل كانت

رهيبة تلك السلطات الواسعة التي ملك في يديه كان السيد المطلق لمن عليها وما عليها ... كان من أوائل الدكتاتوريين الذين عرفتهم روما في تاريخها وقتاً حسناً ... ومن أوائل المجانين : ومن ذا الذي يصل إلى هذه المكانة من الأرض ومن النفوذ فلا يدور رأسه؟ أصغر منه بكثير دارت رؤوسهم لأشبار من الأرض حكموها وسنوات محدودة ملكوا فيها تلك السلطات المطلقة ... وليس كاليغولا باسم للرجل فقد كان اسمه غايوس . وكاليغولا تعني الحذاء العسكري الصغير لأنه رافق أباه في حملة على نهر الرين فلقبه الجند هذا اللقب ، كان عمره ٢٢ سنة حين ولي الامبراطورية . فأكثر المهرجانات ووزع هبات القمح المجانية على الناس ثم أصيب بلوثة في عقله وطالب السناتور (مجلس الشيوخ) بأن يؤلهه ... ويؤله إخوته البنات . وبنى جسراً شاهقاً بين تلين من تلال روما ليتصل كما قال بأخيه الإله جوبيتر . وحاول أن يرغم المواطنين على مناداته بالسيد باعتبارهم عبيداً له . وقام بمذبحة في الاسكندرية وبعث يطلب من حاكم سورية الانتحار ... وصنع تمثالاً لنفسه من الذهب أرسله إلى القدس .

كان الامبراطور المقبول لدى الناس أول الأمر حتى جاء يوم توفيت فيه أخته دروسيلا ... وكان بينه وبينها من العشق ما يزري بما بين ليلى وصاحبها قيس المجنون . وبدأ بذلك انحرافه وبدأ حكمه يأخذ شكل الدكتاتورية الدموية . ومرحلة الانهيار . كل الدكتاتورين في التاريخ يصعدون ثم يصعدون ويصعدون حتى تأتي اللحظة التي ينتهي فيها أمامهم السلم الصاعد فتكون الخطوة التالية هي خطوة الهاوية ، والخطوة الأخيرة ! ...

وكانت خطوة الهاوية بالنسبة لكاليغولا هي موت أخته .

من هذه النقطة أمسك ألبير كامو بخيط المسرحية التي كتب ... ومع أنه حاول في سيرة الرجل ألا يغادر التاريخ إلا قليلاً فقد جرته الكتابة الغنية إلى

البعد الشاسع عنه.ومع أنه لم يكن في حياة الرجل تلك المعاني التي حمله إياها الكاتب فقد أعطى كامو لحياة كاليغولا المجنونة أبعاداً ليست فيها ولم تخطر للامبراطور في بال ... إن المسرحية التي بناها نموذج لما يمكن أن يفعله الأدب الغني في التاريخ... أو بالأحرى نموذج لما يمكن أن يوحي به التاريخ للأديب ...

بعد وفاة الأخت دروسيلا خلت الدنيا أمام الامبراطور من كل شيء حتى من البشر . رأى نفسه على القمة وحده . وحده ! هذه الوحدة المطلقة مع الحرية المطلقة التي رافقتها هما اللتان قتلتاه . بعد أن أطارتا صوابه واتزانه ! هذا على الأقل ما التقطه الكاتب من خيوط حياة الامبراطور الرهيب ...

حاول أن يكون مع الناس ، أن يتصل بهم وأن يقوم بما يقوموا به فأعجزه ذلك تماماً . ليس ثم بشر من مثله . ولذلك بقي الناس حتى من الحاشية على مسافة واضحة منه . كان فرداً . لبس ملابس النساء ليستلفت الأنظار فلم يفلح . استدعى أعضاء مجلس الشيوخ ثم طلى أظافر يديه ورجليه أمامهم بالطلاء الأحمر ، كما تفعل النساء فبقوا يتفرجون ! . رقص رقص الجواري أمام أعينهم فبقوا ينظرون إليه ولا ينبسون بحرف ... إنه من عالم غير عالمهم . وبقي هناك وحده في عالم آخر . يملك كل شيء ، كل شيء يريد ولكنه كمن لا يملك شيئاً إذ لا طعم ولا معنى لما يملك ...

على هذه الخلفية من الغربة المطلقة أو الوحدة المطلقة ومن الحرية المطلقة نسج كامو مسرحيته كأنها سؤال : ماذا يفعل الإنسان لو أضحى وحيداً تماماً وحده في القمة . ومعه الحرية الكاملة في أن يفعل ما يريد ؟ وأجاب على ذلك أنه لا يبقى أمامه إلا الموت ! وحده الموت هو الذي يشفيه ، يعيده إلى الناس وإلى الحياة ... وحين يرى المتآمرين حوله يتكاثرون ، وفي يد كل منهم سكين القتل ، لا يجزع لأن دوافع الحرص على البقاء لم تعد ملك يديه ! لقد انعدمت لديه ! حتى الحياة تساوت لديه مع الموت فلا معنى لا لهذا ولا لتلك !

أضحى كل شيء ككلّ شيء! فالحياة إذن حياة الشيطان الذي تستوي لديه جميع الحالات!

.. ما كان من هم كامو الموعظة، كانت آخر ما يهمه. وإنما كان يريد الوصول إلى الموقف الإنساني في أقصاه. كان يريد دراسة الحالة. والإدلاء برأي فيها. كان يعتقد أن الإنسان إنسان لأنه يلتقي مع الآخرين ويريد أن يعيش ضمن الآخرين. تأخذ حياته معناها بوجود الآخرين وإلا فهو سوف يصطدم بالمستحيل، الذي يدمره، يقتل الحب والتضامن الإنساني والخير والشر على السواء. إن الإنسان لا يستطيع تحطيم كل شيء إلا إذا حطم نفسه أيضاً، كما يقول كامو نفسه. ولهذا فإنه حين نفر الناس من نفسه نفر الناس منه وأصبح في عزلة تامة. ومضى في طريقه متابعاً لمنطقه. قدم بيده لأعدائه السلاح الذي سيقتلونه به حين تحين الفرصة المناسبة!

إن مسرحية كاليغولا قصة انتحار كبرى — كما قال كامو — قصة ذكاء خان صاحبه، قصة تقول إن الناس يموتون وهم غير سعداء! وإن محاولة الوصول إلى ما وراء المستحيل مستحيلة!

من أحد مشاهد المسرحية يقول بعض الحاشية لبعض في حوار مستريب:

إن ما وصلنا إليه لا يعجبني. كل شيء كان يسير سيراً طبيعياً. كان العاهل صورة للكمال نفسه حتى ماتت دروسيلا. كان صورة للامبراطور كما نتمناه. ولكن حبه لأخته جاوز الحد وقلب روما لمجرد أن الفتاة ماتت. وهروبه من القصر يخيفني. إنه غائب منذ ثلاثة أيام يمضي وسط العواصف. مصالح الدولة تقضي بمنعه من تحويل مأساة شخصية إلى مأساة عامة...

ويقول مرافق الامبراطور الخاص: كيف تؤكدون أن هذا الاضطراب سببه موت دروسيلا؟ لماذا تختارون أغبى الأسباب. أعني أوضحها؟ ويدخل الامبراطور ويقول:

ـــ الان اسمع. إنني لست مجنونا. لم يكن ذهني اصفى مما هو عليه الان لكني أحسست فجأة بالرغبة في الحصول على المستحيل. هذا كل ما في الأمر. في السعي للحصول على القمر أو السعادة أو الخلود. للحصول على شيء مستحيل الوجود في الدنيا... بعد أن نلت كل شيء!

ومن مشهد آخر يرى أن خزانة الدولة أهم من كل الأمور الأخرى فيأمر بأن يوصي الأغنياء جميعاً بأموالهم لها. ثم يصدر أمراً بقتل جميع الأغنياء لئلا تحدث مشاكل. لأنه يعرف الآن الطريق إلى الحرية. وتراه محظية له يبكي فيجيبها. أتظنين أن الحب هو الشيء الوحيد الذي يجعل الرجل يبكي؟ في صدري أشياء تبحث عن طريقها إلى النور وأنا عاجز أمامها. إني أحس بمرض غريب في جسمي نفسه رأسي يطن. وأحس بالرغبة في التقيؤ: اسودت الدنيا في عيني وأصبح كل شيء في نظري مريعاً!

ويتصرف كاليغولا كالمجانين لأنه يملك الحرية المطلقة من كل قيد. يقتل بعض أعضاء مجلس الشيوخ ويقول لابنه غاضباً. هل تعرف معنى الوحدة؟ إنها مستحيلة الإدراك. أشباح من أحببناهم أو قتلناهم تلاحقنا على الدوام. وقد لا يسبب الموتى لنا أي هم. أما الأحياء فهم الذين يرافقوننا في حشد من المرارة والحلاوة والعهر والأوثان! ليتني أكون مرة وحيداً حقاً. ليتني أستطيع التخلص من هذا الخلاء الموحش الذي تسكنه الشياطين لعرفت للحظة واحدة معنى الوحدة الحقيقة: معنى الصمت!

ويقتل كاليغولا بعد ذلك الكثيرين لكي يحس أنه حي. أنا أقتل فأنا حي. ويقتل محظيته المفضلة لكي يثبت ألا سلطان للحب عليه... وأخيراً لا يرى من سبيل أمامه إلا أن يموت ويسمع قعقعة الأسلحة التي تتجمع لقتله ويدركه الخوف:

ـــ إني خائف. بعد أن تحتقر الآخرين تجد نفسك جباناً مثلهم... من المستحيل الوصول إلى المستحيل... وفي حين تقول له محظيته الطعينة:

ـــ اهبط إلى التاريخ يا كاليغولا ! اهبط إلى التاريخ .

يدخل جماعة من أعضاء مجلس الشيوخ بالأسلحة فيقتلونه.وفيما كان يموت يرفع رأسه ليقول : ما زلت حياً فيكم !!

لا ! ما كانت حياة كاليغولا بهذا العمق ولا حملت هذه المعاني كلها ولكن كامو إنما استخدمه رمزاً . صعَّد من حالته ليجعلها مأساة إنسانية كاملة ، صعد منها ليحملها ما يريد . ولكن هل تسلم شخصية كاليغولا التاريخية بعد اليوم من هذه المعاني التي أسقطها عليه الأديب وحملها عليه أو حمله عليها ... أشك في ذلك ! وهنا عبقرية الفكر الأدبي حين يتناول التاريخ .

إنه يفتح فيه كل الجروح !

الكاتب التنوخي

لو كررنا هذا الاسم مرات على المثقف العربي العادي اليوم لما عرف من الرجل؟ ولا ما عصره؟ ولا ما كتب؟ ومع ذلك فهو من أعيان الكتاب في النثر العربي في القرن الرابع، يوم كان هذا النثر في أوجه ازدهاره.ويوم كان الأدب في المعنى وفي التسجيل يقصد به مع المؤانسة والامتاع تزويد الناس بالمعارف العامة ذات الطابع الدنيوي وتلقينهم مرهف الحكمة ومحاسن السلوك في القول والعمل.

اسم الرجل: أبو علي المحسِّن بن علي التنوخي. ويلحقون باسمه كلمة القاضي للدلالة على عمله الأصلي لكنا لا نعرف إلا القليل القليل عنه: فقد ولد في القرن الرابع الهجري وتوفي فيه. أي (ما بين سنتي ٩٤٠ — ٩٩٤ للميلاد) وقد تولى القضاء في أنحاء شتى من مدن العراق: البصرة وبغداد والأهواز وسواها. وقد دخل الأدب من بابه الأوسع حين كتب كتابه ذا الثمانية مجلدات بعنوان: نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة. بعد أن كان كتب العديد غيره. وكتبه في حكايا لا ناظم لها ولكن يجر التداعي بعضها بعضاً.وفي أسلوب لا هو من النثر المزوق للنخبة من أهل المعرفة الذين يتبارون فيما بينهم في البلاغة حتى يصلوا حد الصنعة والتصنع، ولا هو من الأدب الشعبي أو العامي القائم على الأساس الفولكوري التقليدي. فهو من هذا ومن ذاك بين بين!

ويبدو أن صنعة القضاء غلبت التنوخي على قلمه وأغنت خبرته كراوية

للأحاديث فهو يأخذ العهد على نفسه في مطلع الكتاب بأمرين :

ـــ أن لا يورده شيئاً مما أورده المؤرخون من أحوال الناس والأخبار والأحداث .

ـــ وأن لا يذكر إلا ما استوثق منه ! وكثيراً ما تذكر سند الخبر ورجاله بأسمائهم كما يفعل المحدثون .

وهكذا فعلى الرغم من أنك تجد لديه الأحاديث عن الخلفاء والأمراء والوزراء وأحداث التاريخ السياسي المرتبطة بهم ، فإنك واجد بجانبهم ومعهم أخبار النجار واللحام والشواء والنساج والمعلم والراوي والتاجر . وتصادف على سطوره الخلفاء العباسيين من هرون الرشيد إلى الخليفة الطائع . ويمر أمامك جمع من أمراء بني بويه مع أشهر الوزراء وكبار موظفي الدولة والقضاة ، وفيهم زعيم المتمردين الفرس بابك الخرمي والواعظ الصوفي المعروف الحلاج وسيف الدولة وأشهر شعراء القرن الرابع الهجري (١٠م) كالمتنبي وأبي فراس الحمداني وغير هؤلاء وهؤلاء من المشاهير ، يمر هؤلاء تماماً كما يمر المكدون وأرباب الحرف والدجالون والخبازون وصيادو السمك على ضفاف دجلة ! جميع أصناف الناس تمر أمامك في عرض مثير ، ولكن في حياتهم اليومية وفي حديثهم اليومي وفي هواجسهم ومباذلهم وفي لعب الأحلام . وهكذا جاءت حكاياته غير مسبوقة ولا منقولة إلا على الألسنة ولم يكن يأخذها إلا عن الثقات الثقات ومما كان يدور في مجالس الأنس والسمر أو المناقشة في العلم والأدب أو ما يجري في الحياة العادية للناس وبين أوساطهم .

ولقد يكون قصد التنوخي إلى التربية الأخلاقية ولقد يكون إنما يدير القصة الصادقة مع شيء من « الفلفل والبهار » الغني الذي يجعلها ذات طعم حريف أو مدهش أو مثير ! . ولكنه في كل الأحوال يحملك فيضعك في لجة المجتمع الإسلامي لعهده ويدير حولك من الصور ما لم تسمع به ومن الخبر ما لم

يسجله غيره من الأحداث والطرائف وألوان الحياة. لا ! ما هو بالواعظ المتزمت .

ولقد يصل به وصف الممتع والطريف إلى عرض الحكايات الشعبية والنكت.ولكنه في كل الأحوال يقدم لوحة فيها من كل شيء ألوان . ولما كان التنوخي من المعتزلة فإنه مع ذلك يعتبر العقل أهم موازين المعرفة . ويقف موقف المتحفظ إزاء المعجزات التي يدعيها بعض الصوفية والمنجمين والدجالين باسم الدين.ولا يتورع عن النقد الخفي الناعم للحكام في أهوائهم أو غضبهم التعسفي أو مسلسل البطش الأعمى الذي يسوسون به الناس . يروي مثلاً : في حديثه عن العطور الغالية المحفوظة في خزانة القصر الخلافي : كيف صانها الخليفة المعتضد أحسن الصون.وصرفها الخليفة المكتفي بشكل معتدل،أما الخليفة المقتدر الذي تولى الحكم بعدهما فقد بددها تبديداً ... ويروى مثلاً أيضاً أنه كان من عادة معز الدولة البويهي إذا حمى جداً أن يأمر بالقتل.لكنه يكره أن يتم ذلك . ويعجبه أن يسأل العفو . أمر مرة بشنق مزيف من مزيفي النقود وعلم بتنفيذ الاعدام فيه فاستشاط غضباً ونهر الجلاد وحاضري مجلسه يوبخهم قائلاً : ما كان فيكم من يسألني ألا أقتله ؟ ويروي التنوخي حادثة مماثلة عن سيف الدولة فيذكر أنه قال لحاشيته . ما هذا الأدب السيء . وما هذه المعاشرة القبيحة التي نعاشر ونجالس بها . كأنكم ما رأيتم الناس ولا سمعتم أخبار الملوك ولا تأدبتم بأدب دين ولا مروءة . أما فيكم من كان يستشفع فيه ؟ ...

ويعطينا التنوخي صورة قاتمة عن الحكم في عصره تعريه حتى العظم حين يذكركيف استطاع الوزير ابن الجصاص أن يحمل ابن الفرات منافسه في الوزارة حملاً على تغيير موقفه المعادي له . قال له : لأقصدن الخليفة الساعة ولأحولن إليه من خزانتي ألفي ألف دينار (مليونين) عيناً وورقاً وأقول له : خذ هذا المال وسلم ابن الفرات إلى فلان واستوزره . وأذكر أقرب من يقع في نفس

الخليفة موقع الموافقة ممن له وجه مقبول ولسان عذب وخط حسن ولا أختار إلا بعض كتابك فإن الخليفة لا يفرق بينك وبينهم إذا رأى المال حاضراً. فيسلمك في الحال لهم ويراني هذا الكاتب بعين من أخذه وهو صغير فجعله وزيراً وغرم عنه المال الكثير. ويعتقد أني ربه وولي نعمته فيخدمني ويتدبر بتدبيري في جميع أمره وأطلب إليه فيفرغ عليك العذاب حتى تدفع له الألفي ألف دينار بأسرها . وأنت تعلم أن حالك تفي بها ولكنك تفتقر بعدها ويرجع إلي المال لا يذهب علي منه دانق. وأكون قد أهلكت عدوي وشفيت غيظي واسترجعت مالي وازداد محلي عظماً بصرف وزير وتقليد وزير ... » وبدت هذه الخطة الشيطانية ممكنة الوقوع فما أسرع ما انقلب العدوان صديقين !! .

ونقرأ لدى التنوخي الكثير من مثل هذا الذي يجري في الكواليس أو بين الناس من مجالس الأمراء والكبراء من فساد الذمم والقيم ، ومكتوم الأسرار ، أو من قصص العامة ومن في قاع المجتمع من المهملين .

في إحدى الصفحات تقرأ كيف كان الوزراء يتدبرون الموارد لحاشيتهم عن طريق الرقاع التي كانت تلتمس فيها الحاجات من الوزير . فيروي السري الزجاج أن كان يؤدب القاسم بن عبيد الله . ابن الوزير عبيد الله بن سليمان بن وهب فقلت له : إن بلغك الله مبلغ أبيك ووليت الوزارة ماذا تصنع بي ؟ قال ما أحببت قلت تعطيني عشرين ألف دينار وكانت غاية أمنيتي ... فما مضت إلا سنون حتى ولي القاسم الوزارة ولكني هبت أن أذكره بالوعد.فلما كان اليوم الثالث لوزارته ذكرني هو به.وقال تأخذها متفرقة فقبلت . فقال : إجلس للناس وخذ رقاعهم للحوائج الكبار واستجعل عليها إلى أن يحصل لك المال . وفعلت فكنت أعرض عليه كل يوم رقاع الناس فيقول كم أخذت على هذه ؟ وربما قال : غبنت هذه تساوي كذا وكذا ارجع فأستزد . وعرضت عليه شيئاً عظيماً حتى حصلت عندي عشرون ألف دينار في مدة قصيرة . فقال لي بعد شهور : حصل مال النذر ؟ قلت : لا فسكت.وعرضت عليه بعد ذلك

الكثير حتى استحيت أن أكذب فقلت حصل فوقع لي بثلاثة آلاف دينار صلة فامتنعت في اليوم التالي عن استلام الرقاع وعرضها فقال :

ــ سبحان الله ! أتراني كنت أقطع شيئاً قد صارَ لك عادة وعلم به الناس وصارت لك به منزلة عندهم وجاه ... فيظنون أن جاهك ضعف عندي ؟ أعرض علي رسمك . وخذ بلا حساب ! ...

وذكر التنوخي قصة أخرى عن الوزير ابن مقلة الذي برم بكثرة الرقاع التي يقدمها إليه صاحبه جعفر بن ورقاء فغضب جعفر وقال : أيد الله الوزير إن كان فيها شيء لي فخرقه إنما أنت الدنيا ونحن طرق إليك.وعلى بابك الأرملة والضعيف وابن السبيل ومن لا يصل إليك فإن سألونا سألناك ... وإلا عرفناهم ضعف جاهنا عندك . فقال ابن مقلة الوزير : لا عليك هات الرقاع وكانت تزيد على مائة رقعة فوقعها جميعاً.ومثله قول أحد المختصين بالوزير علي بن عيسى الذي رأى برمه بكثرة التواقيع فقال : إذا كان حظنا من أعدائك في أيام نكبتك الصفع ومنك في أيام ولايتك المنع فمتى يكون وقت النفع ؟ ...

وفي مجال آخر نقرأ قصة طويلة لجارين آذى . أحدهما الآخر في ضيعته وكانت ضياع الأول لأم الخليفة فاستأجرها منها ثلاث سنين بضعف الأجر على أن تسلم إليه جاره وفعلت.ومع أنه لم يربح في ذلك لكنه شفى غله من صاحبه فلما امتنع بعد ذلك عن الاستئجار،ألزمته.فهرب من رجالها متخفياً إلى بغداد ووسط الوزير لتتركه . ثم باع السلطان ضياعه فاشتريناها لكنه بعد البيع ألزمنا زيادة كبيرة . فامتنعوا جميعاً دون فائدة.فاتفق الرجل مع العامل فقسطها على الناس وكان يعفو بعضهم ويزيد على بعضهم الآخر أو يخفف عنهم ، ثم جاءه الجار واستدان منه فلم يستطع الوفاء فأبقاه في الحبس حتى مات !

كل هذا وأمثاله إنما هو تاريخ ما أهمله التاريخ والجزء المكمل لأخبار عصر كان من أزهى العصور في التاريخ الإسلامي حضارة وتألقاً ... وما كتبه التنوخي حين كتب يريد الإساءة إلى عصره ولكنه كتبه كأديب . وكان

الموضوع الذي يشغل المحل المركزي من تفكيره أن ينبه إلى تقلبات القدر الذي يلعب بمصائر الناس من فئات المجتمع كافة « لكنه لم يدرك أنه بذلك يؤرخ، يكتب التاريخ الحقيقي، بصدق ما بعده صدق. وأنه بكتابه نشوار المحاضرة المفتوح الصفحات والنوافذ على كل الآفاق قد كتب أجمل وأصدق صفحات التاريخ ...

أم أنك عزيزي المستمع ما تزال تكتب عنواناً لكتب الأدب.

وعنواناً آخر بعيداً عنه لكتب التاريخ؟

الاستعمار... في القاع

قل كلمة الهند واسكت ... إذن ينهمر كالمطر في خاطرك وفي خواطر أصحابك ومن حولك ألف صورة وصورة لألف وجه ووجه، أسطوري وغير أسطوري! من صور المراكب الأولى تحمل القرفة «الدارسين» والزنجبيل والفلفل على الأشرعة، إلى المعابد الهندية الممردة، المزخرفة بألف نقش، إلى الفقراء يتسولون اللقمة ولا يجدون، إلى المشعوذين يرقصون الأفاعي على المزمار، إلى طاغور مسكر الدنيا بغنائه الصوفي، إلى القمم تثقب الغيم وما وراء الغيم، إلى الفقر الأسود والجهل الأكثر سواداً منه ... والمهراجات بتيجانهم المزركشة على الأفيال. والغابات التي تبتلع كل شيء ... إنه عالم كامل في قارة متعبة حتى الاعياء!!

ولقد تكون قد زرت الهند ورأيت السطح الظاهري لها. جلدها الأسمر والتجار فيها والأسواق المتربة. والبشر تجري سيولاً كنهر الغانج مع البقر في الشوارع. ولقد تكون عرفتها وأدار رأسك تاريخها المعقد لا أكثر من ألوانه وحروبه ولا أقسى. وإذا كان فيه مئات الأباطرة والملوك والراجات والذهب الذي يموِّه العروش والتيجان والجوهر المنثور ففيه أيضاً الموت الأسود يسعى في الطرقات ويلم الجثث المعروقة حتى العظم ... إقلب الصورة فقط وانظر!

هذا ما فعلته الأديبة كالا مركندايا في قصتها: الرز وريح الخماسين. نظرت خلف الصورة في القاع. إلى حياة فلاحة هندية في ذلك العهد وتوقفت عند بعض تفاصيلها. وكما تكثر المبالغات وتطول في الأفلام الهندية تكثر

التفاصيل ، وتطول في هذه القصة كأنها تريد أن تحكي أكثر مما يمكن أن يحكى وأكثر من مدى الأسطر . ولكنها بين هذا وذاك تلخص تاريخ الهند الاستعماري الخفي كله في مآسي تلك الفلاحة في مدى الصفحات الأربعمائة التي تكتبها عنها . إنها تكتب التاريخ الحقيقي للبؤس الهندي في ظل ثلاثمائة سنة من الاستعمار ولكن في سلسلة مصائب تتوالى دون هدنة من أول الرواية إلى آخرها أو من أول الحياة إلى آخرها . هل ثم فرق ؟

بطلة القصة روكماني كانت آخر أولاد أبيها وأسوأهم حظاً . تزوجت يوم إدبار الدنيا عن أبيها المستور الحال . كان عمرها ثلاث عشرة سنة . ومضى بها زوجها إلى قريته النائية . ولم تجد له هناك بيتاً ولكن كوخاً من الطين مسقوفاً بغصون الشجر وحصيراً يفرش الأرض.ولكنها قنعت بقدرها مع زوجها العطوف المعروق العظم وانغمرت بالعمل معه في قطعة الأرض الصغيرة التي يعيش عليها بزراعة الرز . وبالغوص في الوحل رعاية وتعشيباً غرسة غرسة . وكثيراً ما كانت السماء تحبس مطرها فيحترق الزرع أو تفتح ودقها سيولاً تأخذ الزرع.والأسرة في الحالين مهددة بالجوع المطلق إن لم يكن بالموت . ولم تنجب الزوجة أول الأمر وخشيت أن يعيدها زوجها إلى أبيها كما هي العادة.ولكنها تداوت بعد ذلك وأنجبت بنتاً وأربعة أولاد وصار البيت سبعة أفواه لا بد من إطعامها . وعالم روكماني لم يكن يجاوز ثلاث جارات مسكينات ، وعجوزاً اتخذت من الرصيف مسكناً ودكاناً لبيع الخضار فأجهدت روكماني جسدها في زراعة الفراغات الصغيرة في أرضها التي أضحت كظهر الضب أو أكثر عقداً .

وفوجئت القرية ذات يوم بورود قوم غرباء وعربات محملة بالأسمنت والحديد ! قالوا إنهم سيقيمون في القرية مدبغة جلود . وانقلبت حياة القرية كلها نوعاً وضجيجاً وحركة . فتحت الدكاكين لبيع كل شيء . وبنيت الدور

للعمال فيما كانت مدبغة الجلود تتضخم وتستهلك مياه القرية كلها . وحين أرادت المدينة التوسع ابتلعت بين ما ابتلعت بعض أرض الفلاح.وشح دخله في حين كانت الأسعار ترتفع في القرية أضعافاً والفقر يزداد أضعافاً حتى كادت الأسرة تأكل التراب .

وفي السنة التي بلغت فيها ابنة روكماني الثانية عشرة وصار لزاماً زواجها كانت الأمطار الموسمية من السخاء بحيث جرفت كل بيوت القرية . أحالتها أكواماً من الطين فليس ثم منزل قائم وطغت على الأرضين مع جثث الغرقى من الأطفال جثث الأبقار والكلاب ...

كان هذا الطوفان هو الكارثة التي مزقت الأسرة : هاجر الولدان الكبيران . سمعا بعمل تعرضه الحكومة في مزار ع الشاي البعيدة البعيدة فلحقا بالصوت . لم يرهما الأب بعد ذلك . ولم يتلق منهما كلمة . فقد كانا أميين ولا يكسبان في مزار ع الشاي السيلانية أكثر مما يقيم الأود .

البنت الكبرى تزوجت فلاحاً في قرية بعيدة فلما لم تنجب بعد أربع سنوات أعادها إلى أبيها ..! ورزقت روكماني الأم بطفل عنيت به ابنته الكبرى وأفرغت عليه كل ما في طواياها من حنان الأمومة وضحت بذاتها من أجله ولكنه مات ثم رزقت الأم بطفل أبرص تكفلت به أخته على طريقتها في الحنان .

وحلت بالمنزل مصيبة مما يصيب الفلاحين . حراس المدبغة طاردوا بعض الغلمان من لصوص الجلود فضربوا الابن الأصغر في الأسرة ضربة أودت به ... لم يكن لدى الأب من رغبة في مقاضاة القاتل الذي زاره ليرضيه ببعض المال . وعاد مطمئناً دون أن يدفع روبية واحدة .

وقررت شركة المدابغ التوسع مرة أخرى فالتهمت باقي أرض الأسرة جميعاً فإذا الأسرة في العراء لا مأوى ولا أرض ولا مال ... ورأى الأب اللجوء إلى المدينة مع زوجته لعل وعسى فقد كان أحد أبنائهما قد صار خادماً عند سيد

إنكليزي ... ولكن الثور الذي رافقهما في الطريق نفق وبعض المال الذي كان في حوزتهما سرق في الطريق والأمل الذي عقداه على ابنهما مات ... لقد هرب الابن من زوجته وأولادهما فطردت الزوجة والديه شر طردة . بعض المعابد كانت تقدم لهما بعض الرز للطعام هي التي ربطتهما بالحياة حتى وجد الزوج عملاً في مقلع للحجارة عمل فيه طويلاً حتى جمع ثمن بطاقة سكة الحديد التي تعود به إلى القرية . لكنه حتى في هذه لم يفلح . أصابه من المحجر حجر أودى به ! انتهى شقاؤه الصابر كما تنتهي آلاف الكلاب الصامتة !

وعادت روكماني الزوجة إلى قريتها لتعيش مع ابنها الذي وجد عمل ممرض وابنها الآخر الأبرص والابنة التي وجدت عملاً كخادم في المستشفى !

وإذا توقفت القصة هنا فإنك بخيالك تستطيع أن تستمر بها ، أن تضيف إليها من المآسي وقصص الجوع والموت ما شئت . إنها واحدة من ملايين القصص التي عرفتها الهند في العصر الاستعماري وإن لم يكتبها الكتاب . أهل القاع في الهند قلما لفتوا النظر وإن كانوا بعشرات الملايين . الحكومة الإنكليزية كانت تتجاهلهم . إنهم متروكون لأقدارهم الصعبة . وهم بدورهم مستسلمون ، كالقش على وجه النهر ، لهذا القدر . لا يجادلونه . لا يتهددونه . لا يسألونه الرحمة . قد استوى عندهم الشقاء والسعادة والموت .

وصار كل شيء ككل شيء . إنها حياة الحيوان الأبكم الأخرس التي حرصت السلطات الإنكليزية على إبقائها كما هي مزرعة للرز والشاي والفلفل ... ولتسلية اللوردات بصيد النمور . مامن كتاب يكشف قاع الاستعمار الإنكليزي كهذا الكتاب . إنه يغني عن ألف كتاب . لأنه يضعك وجهاً لوجه أمام المصير الأسود ... بكشف أن الإنسان تحت الحكم الاستعماري متروك لمصيره ... إلا إذا قصر في مصالح الحكام أو ثار . وعند ذلك فله العصا الغليظة ! ... فيما عدا ذلك فليس أكثر من دابة بكماء خرساء تطحنها الرحى المسلحة .

ومع ذلك، ضمن الجموع البكماء الخرساء أوجد غاندي الكتلة الجماهيرية الضخمة التي وقفت للامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، عزلاء إلا من الإيمان وأرغمتها على التراجع، ومن هذه الجموع البكماء الخرساء، التعيسة حتى الموت صاغت الهند قدرها، بعد الاستقلال، مع جواهر لال نهرو، علماء ومعابد وجامعات ومعامل وتجارات... بلد المتناقضات القصوى أوجد طريقه إلى الغد بعد أن أزال عنه الأشباح الثلاثة مصاصة الدماء:

الإنكليز والمهراجات والفقر الأسود.

أم ترى الفقر ما يزال يروغ هناك بين الدروب؟

الأدب الشعبي... تاريخ بدوره

في ليما فيما أذكر، عاصمة البيرو من أمريكا الجنوبية تمثال في ساحة واسعة لجسدين لا تدري كيف أدار الفنان اعتناقهما فإذا هما قطعة حجر واحدة فما من فكاك! تذكرت هذا التمثال فجأة وأنا أفكر في الحروب الصليبية والأدب الشعبي الذي أثارته ولونته على الجانبين الإسلامي والمسيحي. أي فيض وجداني أحدثته هذه الهزة التاريخية الكبرى بين الطرفين وأي اعتناق تاريخي — أدبي أقامته في أعماق النفوس فما تدري الخيال فيه من الحقيقة ولا الأدب المحض من التاريخ المحض... إنك لا تجد في أحداث التاريخ حادثاً مماثلاً يعتنق فيه الأدب الشعبي والتاريخ قروناً في أعماق الوجدان الشعبي على الجانبين كهذا الحادث. لقد أخذت فيه الأماني شكل الحقائق، وحالت الحقائق فهي هرب وأوهام واعتذار وبطولات وما شئت من المنى المستحيلة!

والحروب الصليبية جرح ناغر ما نزال نشكو عقابيله إلى اليوم رغم مرور ثمانية قرون على نهايته الرسمية. ولعله بدأ قبل بدئه الرسمي بزمن طويل. هذه العلاقة بين الشرق، شرقنا من مغربه إلى مشرقه، وبين الغرب الأوروبي، ومن مشرقه إلى مغربه بدوره، كانت منذ ثلاثة آلاف سنة أو تزيد علاقة مأسوية. فيها مزيج الدماء والأشلاء وصراع الأشرعة والمصالح وشفرات السيوف، وتناوب التسلط، وتراكم الأحقاد حقداً على حقد. الطرفان يجدان على الدوام جذوراً سوداء يحركون بها النار لتتقد ضراماً. وإذا كان العرب قد دخلوا مرة واحدة طرفاً. في هذه العلاقة يوم نشروا الإسلام، كما دخل الترك مرة، فقد دخل

الغرب طرفاً أربع مرات ، أيام اليونان ثم الرومان ثم الحروب الصليبية وأخيراً أيام الاستعمار وكانوا في الحالات الأربع أهل احتلال واستغلال وسيف حديدي وأعين وحشية كأعين الغيلان ! وقد كُتب ذلك في الوجدان الأعمق منا ومنهم . الكثير من الأدب تلال من الشعر وأكوام بعد أكوام من الصور ترسبت هنا وهناك وكلها شعبية . وكلها تحمل مواقف واضعيها أو توحي بها لسامعيها أو تدافع عنها فمن شاء التاريخ بالمعنى الدقيق للكلمة وجد فيها خيالاً كثيراً ومن شاء الأدب والخيال الأدبي وجد فيها بدوره تاريخاً كثيراً .

في واحدة من الحكايات الثلاث المتصلة بالحروب الصليبية في ألف ليلة وليلة وهي حكاية الملك النعمان وولديه شركان وضوء الزمان تبدأ الحكاية في دمشق في خلافة عبد الملك بن مروان ثم تراها تتم في بغداد.وتحكى عن ملك كان يقال له عمر النعمان لا يصطلى له بنار ولا يجاريه أحد في مضمار.وإذا غضب خرج من منخريه لهيب نار ، ونفذ حكمه في جميع القرى والأمصار وقد حكم ما بين السند وجزائر البحار (وترمز الحكاية هنا إلى المملكة الإسلامية والخلافة المترامية في أيام عزها) تمتد على ثلاثة أجيال لأن الحروب الصليبية دامت طويلاً طويلاً على مدى مائتي سنة وتبدأ بهروب شركان بن النعمان لأن جارية من جواري أبيه التي أهداها له ملك قيسارية حملت فلم يطق الابن من يشاركه في الملك فهرب في حين ولدت الجارية توأمين : ضوء الزمان ونزهة الزمان .

ويمضي شركان بجيشه نحو القسطنطينية ويبيت ذات يوم في دير يجد فيه جارية تتحداه في الفروسية وأساليب القتال اسمها إبريزة ويقع أحدهما في غرام الآخر ويتزوجان . ويعود شركان بها إلى مملكة أبيه رمزاً للوفاق المسلم المسيحي السابق للصليبيات . ولكن أحد العبيد يفشل في اغتصاب إبريزة فيقتلها (والرمز هنا لما ادعوا من اضطهاد المسيحيين في المشرق) ونعرف هنا أن الفتاة

هي ابنة حردوب ملك قيسارية نفسه وأن أباها قرر شن الحرب على الملك النعمان انتقاماً لابنته القتيلة. وتولت أمه العجوز شواهي ذات الدواهي (وهي هنا تمثل البابوية) رسم خطة الحرب واجتمعت إليها جيوش الإفرنج من سائر أطرافها كالفرنسيس والنمسا ودويرة وجوزته وبندق (البندقية) وجنوبر (جنوة) وسائر عساكر بني الأصفر حتى ضاقت بهم الأرض واستمرت جموعهم تتتابع في الرحيل عشرة أيام (وفي هذا إشارة إلى تحرك أوروبا العام لنجدة ملك القسطنطينية) وبخورها براز البطريق الكبير ذي الانكار والنكير (وترمز الحكاية بذلك إلى كبار رجال الدين الذين رافقوا الحملة وإلى احترامهم الكبير) وتمضي الحكاية في وصف تجمع جيوش الإسلام: جيش شركان مع جيش أخيه غير الشقيق ضوء الزمان رمزاً للقاء المسلمين بعضهم مع بعض بعد تفرق. وجيوش المسلمين خليط من الديلم والترك والكرد. ونكل الخيال الشعبي بالصليبيين أبشع التنكيل فهو يصف أحد أبطالهم لوقا ابن شملوط (ولعلهم يقصدون أرناط المعروف) بأن هذا الملعون كان ما في بلاد الروم أعظم منه ولا أرمى بالنبال ولا أضرب بالسيف ولا أطعن بالرمح والنزال وكان بشع المنظر، وجهه وجه حمار وصورته صنورة قرد وطلعته طلعة الرقيب وقربه أصعب من فراق الحبيب. له من الليل ظلمته ومن الأبخر نكهته ومن القوس قامته ومن الكفر سميته. وحين يذكر قتلى الفرنج يذكر أنهم كانوا مائة ألف خنزير. وحين يهزم ملك الفرنجة يدخل على ملك الروم قائلاً: ما لنا حاجة بدعاء البطريق الكبير ولا برأي أمي ذات الدواهي وبخداعها المتناهي. وكل ذلك تعبير عن الكره العميق الذي كان يتنامى في الصدور ضد الفرنج. وتخرج ذات الدواهي مع أصحابها الذين ألبستهم لباس التجار (ولنلاحظ أن الحروب الصليبية كانت حروب تجارة لعبت فيها الأساطيل الدور الرئيسي) والتجار عمار البلاء كما تقول الحكاية وهددت ذات الدواهي بالقضاء على المسلمين حتى لا يبقى منهم ديار ولا من ينفخ النار إلا من يعبد الصليب والزنار ... وعلى الرغم من اعتراف المؤرخين

بشجاعة المقاتل الصليبي إلا إن واضع الحكاية لا يعترف له بها بل يجرده من الغيرة على العرض . وقد يعطي النساء الفرنجيات سمات الفروسية لكي يجعلهن يقعن في النهاية في هدى الأبطال المسلمين ! ولا تنسى الحكاية الشعبية التأثر الثقافي فتجعل شواهي ذات الدواهي تتعلم اللغة العربية والعلوم الإسلامية (وقد وقع هذا لبعض البابوات) كما تتنكر في صورة أحد أولياء الله ...

هذه الحكاية تحكي ، من وجهة النظر الشعبية ، قصة الحروب الصليبية كما ترسبت في نفوس الشعب كما تحكي غيرها البعد الديني وغيرها البعد الجنسي لهذه الحروب بشكل لا يفلح أي مؤرخ بالكشف عنها . ويتخلل الحكاية الكثير من المرارة والكره والسخرية من مقدسات الفرنج وزعمائهم الكنسيين وتعييرهم بالكفر وتحريف الإنجيل والكذب على السيد المسيح !

أليس لدى الفرنجة شيء من مثل هذا القصص ؟ بلى ! وثم الكثير . لكن معظمه شعر وبالفرنسية القديمة . ومن هذا الكثير مثلاً أنشودة أنطاكية التي تحكي مطالع الصليبيات في المجتمع الأوروبي . إنها ملحمة مجهولة المؤلف ككل التراث الشعبي بكل مكان، وإذا كانت بعض الملاحم تقترب كثيراً من التاريخ فإن هذه الملحمة تقترب منه تارة وتبتعد أخرى . أحاديثها تبدأ بالحديث عن جذور الفكر الصليبي . ويبدؤها الراوي بالخطيئة الأولى ، خطيئة آدم وحواء ونزول السيد المسيح لفداء البشر لتصل إلى الفرنجة وهم الذين اختارهم الرب كي ينتقموا له ويخلصوا ضريح السيد المسيح من أيدي الكفار . تلك إرادة الله . فالرب نفسه هو الذي شرع الحرب المقدسة . وسار على رأس الجيش المسيحي إلى فلسطين « التي تفيض باللبن والعسل » أما الدعاة الذين بشروا بها وجعلوها دعوة مسعورة فيمثلهم بطرس الراهب بعكازه وحماره وثيابه الرثة ولحيته المشعثة وانهيال الأعمال العجائبية على يديه . وتحكي الملحمة إلى هذا : الأجواء المحمومة التي نجمت عن ذلك من الرؤى والأحلام المقدسة إلى النبوءات وتجلي القديسين والقديسات وتساقط النجوم من السماء وتوقع يوم القيامة ... كل

دلك شحذ سكاكين الغرب وسيوف فرسانه والتماع حرابه المسنونة ضد المسلمين الكفار الذين يعذبون الحجاج إلى بيت المقدس ويدمرون الكنائس ويقتلون النصارى . وتواصل الملحمة حديثها عن نبوءة بطرس الراهب وتحرك شعب الله المختار دون أن تحكي كلمة عن فظائع المحاربين الصليبيين في أوروبا وفي القسطنطينية . ثم تتحدث عن هجوم المقاتلين الأوائل على السلاجقة لتعاود الخلط بين الأحداث من جديد مهملة السياق الزمني إلى سياق ملحمي شعري يحكي الذكريات الشعبية . وتنتقل فجأة إلى حملة الأمراء الصليبيين ووصولهم إلى أنطاكية وفتحها وخلافهم على حكمها ...

كل هذه الحالة الهستيرية التي عاشتها أوروبا في أواخر القرن الخامس ومطلع السادس / ١١ و١٢م / . تحكيها في أعماقها وفي أجوائها المهووسة هذه الملحمة الشعبية في تسجيل مباشر طازج ، تلتها ملاحم أخرى وأخرى إمتدت قرنين ... على الطريقة نفسها .

وتدور الأيام ... وتنقضي الأحداث . ولكنها تبقى هواجس تتراكم عليها الأحداث بعضها فوق بعض وتستقي منها . وحين يقولون : إن الحرب والسلم إنما يقومان أولاً في الرؤوس فالأصح أنهما يقومان في هذا اللاشعور التاريخي الشعبي ...

من تلك الأكوام من القش اليابس المختزن حتى العفن والذي يسمونه بالتراث الشعبي تشتعل الأيام ... أم لست معي في ذلك ؟

أساطير كالتاريخ

منذ ألف سنة فقط يوم كانت الأشرعة أعجز من أن تصارع الموج المجهول وكانت المحيطات لججاً لا نهائية موصولة بالسماوات كان خيال الناس إذا جاوز الأرض المعروفة من البحر المتوسط إلى الهند إلى أطراف الصين وقع في الأساطير. وكانت جزر واق الواق أبعد الأبعاد عند الناس. وكان الحديث عن الشجر الذي يثمر بشراً هناك أمراً شائعاً ... والناس فيه بين مصدق ومتشكك لكن أحداً لم يكن يكذب ذلك .

ومنذ ثمانمائة سنة حين انهالت جموع المغول على الأراضي الحضارية حول البحر المتوسط ظهرت تصورات أخرى يحكيها بعض كبار المؤرخين كسبط ابن الجوزي والزهري وابن كثير ويقولون : حكى رسول خاقان ملك التتر عجائب منها : أنه بالقرب من بلاده ، قريباً من بلد ياجوج وماجوج على البحر المحيط أقواماً ليس لهم رؤوس . وأعينهم في مناكبهم وأفمامهم وإذا رأوا الناس هربوا ... وهناك طائفة تزرع في الأرض بذراً فيتولد منها غنم كما يلد دود القز الحرير فلا يعيش الخروف أكثر من شهرين أو ثلاثة مثل بقاء النبات في الأرض. وأنِ هذه الغنم لا تتناسل . ومن هذه الغرائب ، أن بمازندران عين ماء يطلع منها كل ثلاثين سنة خشبة غليظة مثل المنارة فتقيم طول النهار فإذا غربت الشمس غارت في العين ولا ترى إلا مثل ذلك الوقت ... وقيل إن بعض ملوك العجم جاء بنفسه إليها في مثل ذلك اليوم وربطها بسلاسل وحلق عظام وربطها إلى أساطين حولها واستوثق منها فلما جاء وقت الغروب قطعت

السلاسل وغارت في العين. وهي إلى الآن إذا طلعت رأوا السلاسل في وسطها ...».

هذه الأساطير وأمثالها ظلت تشكل قناعات الناس حتى ما قبل ٥٠٠ سنة فقط أي حتى ما قبل أن يقوم كولومبوس بمغامرته الأولى في اكتشاف الأرض الأمريكية. كانت أساطير متواضعة، مكانها البر البعيد ولا تجرؤ على دخول البحار. فإن دخلت البحار مع حكايا السندباد وجدت دوماً جزيرة ترسو عليها وغولاً وجناً يحكمون! ولا شيء أكثر من ذلك سوى الينابيع والشجر ... وذعر الوحدة!

ومنذ ٥٠٠ سنة عاد كولومبوس من الشواطىء الأمريكية. لم يكن أول مكتشف لها ولكن كان أول عائد منها وهذا هو كشفه الحقيقي. وانفتحت على أهل الأرض من بعده المحيطات الكبرى. وكبرت التصورات في الأذهان فجأة. كبرت وتنوعت حتى ما تستوعب. وسرعان ما لحقت التخيلات الأدبية بالواقع الذي يتضح ثم تجاوزته مبتكرة أشكالاً من التصور تتناسب مع التطورات الجديدة. بعضهم غرق في تصور المدن الفاضلة أو الكاملة واليوتوبيا. لكن بعضهم الآخر ظل يقيم بتصوراته بجانب البر الواقعي على البحار. التصورات الوهمية ظلت هي ذاتها ولكنها تشذبت. كسبت من الواقع بعض عناصرها. صارت أكثر عقلانية ومنطقاً. العصر الذي نسميه بعصر الاكتشافات كان لا بد أن يترك أثره في الأدب. وإذا كان معظم ما انهال على الناس من الأدب هذا العصر هو قصص المغامرات. فقد كان ثم خيال أدبي ما يزال يحتفظ بشيء كثير من الأساطير السابقة. كرؤى دانتي في الكوميدية الإلهية، ورؤى سرفانتس في دون كيخوته، ورؤى ملتون في الجنة الضائعة ... وجاءت بعد هؤلاء موجة من التخيلات المستحيلة المتموجة مع الواقع تسخر من الإنسان الكبير الصغير في وقت معاً على الأرض، لتبين مكانه الصغير أمام

اتساع العالم الهائل . الفارق الوحيد والأساسي أن الآثار الأدبية بعد مطالع عصر النهضة وبعد دانتي وسرفانتس كانت تظهر محملة بالآراء الاجتماعية والسياسية والدينية لأصحابها . لم تعد حكايا وأساطير حرة الغصون والجذور ولكن رسائل موجهة ! صارت حقائب ملأى . من هذه الروايات الكثيرة رواية يعرفها الصغار منا : رحلات غوليفر ! ...

كانت الدنيا ما تزال في عصر الاكتشافات والمفاجأة حين ظهرت هذه الرواية وقد جمع فيها صاحبها يوناتان سويفت بين هوس الناس للمغامرات وإن تكن على الورق ـــ وبين ما يزخر في صدره من أفكار دينية واجتماعية وفكرية . لم يعد الكاتب يكتب الحكايا كما في ألف ليلة ، مجردة أو رمزية . ولكنه يكتب ليصور ذاته وعصره وفكره . وسويفت إنكليزي لكنه ولد في إيرلندا وهرب من مربيته على بعض السفن فقضى من المغامرة ٣ سنوات حتى عاد لأهله . نشأ على علم اللاهوت.ثم صار أمين سر بعض أقربائه الأغنياء فعرف الأمور بمهارة فائقة.لكنه عاد ليدخل سلك الكهنوت الانجكليكاني : وكان يتوق إلى أن يبلغ قمة هذه الكنيسة ولكن حالت بينه وبين ذلك عدة أمور منها خاصة أفكاره وجرأته على رجال اللاهوت !

خلال ذلك تعرف على كبار الوجوه في إنكلترا وكتب العديد من القصص.شارك في معظم القضايا المطروحة في عصره . لكنه ظل على المواقف العنيفة والحجج الصلبة لا يعدل عنها إلا إذا تراءى له في فكره أنه يجب أن يلاين أو يعدل إلى الجهة الأخرى . لكنه تميز على الدوام بنقده اللاذع ، تحسبه منقار النسر الحاد . وفيما كانت مظاهر البشر تعلو محياه كان في داخله أتون يضطرم غضباً . إنهم لا يعطونه حقه من التقدم . شكا حتى إلى الملكة ... ولكن عبثاً . على أن ما لم يدركه من الشهرة والمجد في النظام الكهنوتي أدرك أكثر منه بكثير في ميدان الأدب وصار من ألمع نجومه في لندن ! وإذا كان الأسقف

سويفت أشهر نكرة في عصره فقد صار في الوقت نفسه من أشهر الأدباء وأسياد اللغة ... دون أن يدري !!

وأدركت سويفت الشيخوخة فكان يقول: إني لأمقت العالم فقد أصبحت لا أصلح له البتة. وأصبح لا يقرأ يوم عيد ميلاده إلا ذلك الفصل من الإنجيل الذي يلعن فيه أيوب يوم ميلاده. أصبح أكثر مقتاً وزراية للإنسان وإن كان لا يتأخر عن خدمته ...

في تلك الفترة كتب رحلات غوليفر! الصغار يحسبونها حكايا مسلية ولكن الكبار فهموا ما تحمل من رسالة تسخر من عصره، من رجاله، من تهالك الناس على الاكتشافات، من غباء الجنس البشري كله. كان يؤرخ ويضحك في الوقت نفسه لفترة من الهوس أصابت الغرب وجعلته أسير المغامرة والجشع، السندباد الذي كان مغامراً فحسب صار أنانياً طماعاً يلتهم العالم. هكذا وصل غوليفر، بطل سويفت بلاد الأقزام الأسطورية ليجد الرجل منهم لا يزيد طوله على ست بوصات (حول ١٨سم) يتناول الواحد منهم بإصبعيه ويرقصه على كفه ... وكل ما في البلد متناسب مع حجم السكان وحاجاتهم. آنية صغيرة وأحلام صغيرة وحيل صغيرة ... ويُفيض سويفت في المغامرات التي وقعت لغوليفر في هذه البيئة الغريبة من المخلوقات. قبل أن ينتقل به إلى بلاد أسطورية أخرى ينزلها عمالقة ضخام تبلغ قامة أحدهم ستين قدماً (٢٠متراً) .... وكل ما فيها متوافق بدوره مع سكانها في الجسامة والكبر. ويصبح غوليفر ألعوبة صغيرة بين هؤلاء الهازئين من صغره ... ويتحول من الشعور بالسيطرة والقوة إلى الضعف والرعب أمام هذه المخلوقات الهائلة أجساماً وسطوة وضحكات جديرة بحمله كعاصفة من الريح! ...

ثم يذهب المؤلف بغوليفر إلى جزيرة تقطنها جماعة من العلماء الكسالى أو الغريبي التصرف. لينتهي به إلى بلد الأشرار. بلد سكانه مشوهو الخلقة،

مطبوعون على الشر ، خاضعون لسلطة الخيول ... بلى ! ولكنها خيول سمت بإدراكها فأضحت كائنات مفكرة حكيمة ! ...

هذه هي القصة ... التي تحكي مغامرات رجل عاقل في عالم أخذه الهوس بالباطل والزهد ... وقد راجت بسرعة عجيبة ، رغم ما فيها من اتهام للناس بالغباء فقد كان كل قارئ يحسب أنه ليس المقصود بهذا الاتهام وإنما المعني جاره . ولكن سويفت كان يكتب للجميع قصة عصرهم المهووس ــ كان يثير بالموازنة بين المتناقضات واقع النسبية في أمور الإنسان وتأرجحه بين الكبرياء الكاذبة والحقارة النابعة من ذاته . كان يرسم لبني عصره المتلهف في قرم الضباع للحم ، مدى الأسس الفاسدة التي ترتكز عليها قيمه . كان يطامن من العنفوان الذي هجم به بنو قومه على العالم يمزقونه ويحكمون . لا يتكلم كرجل دين ولكن كإنسان !

وغاب سويفت سنة ١٧٤٥ إلى الأبد بعد أن كان فكره قد غاب قبله إلى الأبد . ومع أنه لقي التكريم الواسع في آخر حياته فإنه لم يدركه وسأل : من ذلك الرجل الذي يحبه الناس بكل ذلك الإخلاص ؟ كما لم يدرك رجال عصره رسالته إلى ذلك العصر الجشع ... لم يتوقف عنده أحد ... كل الناس كانوا على الدروب في البر والبحر يلتمسون المزيد والمزيد من المال والأرض والمجد ... لأنهم أقزام في أقزام !

ترى هل صور (سويفت) عصره فقط أم انتقم منه ؟

العقد الفريد تاريخ أيضاً

هذا الكتاب ، العقد الفريد ، كتب في المغرب الإسلامي وتسامع الناس به في المشرق وتشوقوا لمعرفته أي شوق . وحسبوا أنه حامل إليهم أنسام المغرب المختلفة وعطره الخاص البعيد . فلما قرأوه قالوا خائبين هذه بضاعتنا ردت إلينا ! .. لم يجدوا في هذا البنيان الأدبي المنظم من جديد مغربي ــ أندلسي . وجدوا أنفسهم كأنما صاحبه كان يسرب بين الناس في المشرق . ويعيش قيمهم وتواريخهم وأمثالهم وقصصهم وشارد الشعر فيهم . تحسب أن صاحبه لم يرد إلى حمل الأدب المغربي الأندلسي إلى المشرق بقدر ما كان يريد أن ينافس المشارقة في تأليفهم الثقافي وفي التوازي الفكري معهم !

صاحب الكتاب وهو مطبوع اليوم في سبع مجلدات أندلسي هو أحمد بن محمد بن عبد ربه القرطبي . كتبه وقرطبة في أعراسها الذهبية.مسجد ضخم ما ينفك يتسع وحركة حية تغلي في الأسواق . وعلماء يتبارزون وشعراء ينثرون القوافي وبساتين للهو وخرير الماء وأصوات الجواري والندامى . وأمراء للدين منهم وللسياسة جانب وللثقافة والشعر جانب ... ودنيا مقبلة أي إقبال . لازم ابن عبد ربه الأمير عبد الله الذي تولى عرش قرطبة ربع قرن قبل أن يتولاه الخليفة عبد الرحمن الناصر نصف قرن آخر ويكون أول من يحمل لقب أمير المؤمنين في المغرب . وقد لازمه ابن عبد ربه ربع قرن آخر حتى فلج وعجز ومات سنة ٣٢٧هـ عن إحدى وثمانين سنة !

هذا الرجل قبل أن يكون شاعراً رقيقاً كان ذواقة أدب . ذوقه الغني كان

أشبه بوشي العروس أو بليلة تضج فيها الألعاب النارية كل ما فيها ينثر من الألوان والمفاجأة. اختياراته. مواضيعه. أجواؤه تُبحر بك في سبعة بحور ولا ترجع. ولست تدري كم قضى في جمع ما جمع من طرائف الحديث فقد نظم الكتاب التنظيم كأنه العقد، ومن هنا أخذ اسمه. وجعله في خمسين جزءاً كل جزأين كتاب فهو من خمسة وعشرين كتاباً. انفرد كل كتاب منها باسم جوهرة من الجواهر فهذا كتاب اللؤلؤة وهذا للزبرجدة وثالث للمرجانة ورابع للزمردة أو للدرة أو العسجدة أو الياقوتة حتى إذا وصل واسطة العقد عاد فكرر الجواهر للتسمية بالعكس كالصائغ الفطن حتى ينتهي باللؤلؤة مرة أخرى.

ودع عنك هذه الأسماء التي لا تعني إلا الشكل التنظيمي والمبرر وانظر في مواضيع الكتاب تجد الرجل ألم فيه بمجمل ما يمكن أن يسمى بالثقافة العامة لعصره. فيه صورة المثقف في الناس، وحصيلة النديم في مجالس الأمراء والخلفاء، والمحدث اللبق في حلقات الخاصة. فالكتاب إنما كتب لطبقة خاصة في عصر معين يحكي ما تحب وما تكره وما تتربى عليه أجيال الناس من الأدب والسلوك. وتكلم أولاً في السلطات وما ينبغي للملك من حسن السياسة ثم في الحروب ومدار أمرها ثم انصرف إلى الأجواد والوفود ومخاطبة الملوك ثم العلم والأدب والأمثال والمواعظ والتعازي والنسب والأجوبة والخطب والتوقيعات وأخبار الكتبة. ثم عقد كتاباً خاصاً لتاريخ الخلفاء وأيامهم وبعض رجالات العرب وأيامهم. وخرج من ذلك إلى الشعر والقوافي وعلم الألحان ثم النساء وصفاتهن وذكر نوادر المتنبئين والبخلاء والطفيليين وطبائع الإنسان والحيوان والبلدان وعطف أخيراً إلى الطعام والشراب والهدايا والفكاهات والملح ... ثقافة ما يسمى بالمجتمع المخملي في المشرق خاصة فيما بين القرنين الثالث والرابع جمعها ابن عبد ربه بين دفتي كتاب. جميع ما يجب للأديب المثالي من معرفة

ومن قيم ومن مداولة حديث سطره الرجل... وليس في الكتاب بعد هذا التنظيم الشكلي نظام سوى جمع الأخبار إلى نظرائها. فهو سير متصلة وحكم وشعر من أجود ما يمكن تخيره من القصص والحكمة والشعر. ويمكن القول إنه كان كتاب الأرستقراطية الفكرية في آدابها ومباذلها ومجونها وفيما دخل عليها من حكم اليونان والهند ومن حديث الفرس.

ومن فضول القول أن نعرض هنا إلى الكتاب التاريخي الذي طرحه ابن عبد ربه بين كتبه الخمسة والعشرين. إنه لا يزيد على ما جاء في كتب التاريخ في أيامه ولكن تعالوا إلى كتبه الأربعة والعشرين الأخرى في العقد. إنها التاريخ الآخر المهمل والأكثر تعبيراً عن حياة الناس، عن نوازعهم، عن الواقع، وما تخفي الصدور.

يروي في إحدى حكاياته في الحروب أنه لما فتح عمرو بن العاص قيسارية سار حتى وصل غزة فبعث إليه علجها أن ابعث إلي رجلاً من أصحابك أكلمه ففكر عمرو وقال ما لهذا أحد غيري. قال فخرج حتى دخل على العلج. فكلمه فسمع كلاماً لم يسمع قط مثله. فقال العلج: حدثني هل في أصحابك أحد مثلك؟ قال: لا تسأل عن هذا إني هين عليهم إذ بعثوا بي إليك وعرضوني لما عرضوني له ولا يدرون ما تصنع بي! قال فأمر له بجائزة وكسوة وبعث إلى البواب: إذا مر بك فاقطع عنقه وخذ ما معه. فخرج عمرو من عنده فمر برجل من نصارى غسان فعرفه فقال يا عمرو قد أحسنت الدخول فأحسن الخروج. ففطن عمرو لما أراده فرجع يقول للملك: نظرت فيما أعطيتني فلم أجد ذلك يتسع لبني عمي. فأردت أن أتيك بعشرة منهم فيكون معروفك عند عشرة خيراً من أن يكون عند واحد فقال: صدقت. أعجل بهم. وبعث إلى البواب أن يخلي سبيله فخرج عمرو وهو يتلفت قائلاً: لا عدت إلى مثلها أبداً...

ويروي في قصة أخرى حكاية معن بن زائدة إذ استجار به رجل كان الخليفة المهدي قد أهدر دمه وجعل لمن دل عليه أو جاء به مائة ألف درهم فعرفه بعض الناس في سوق بغداد وأمسك بتلابيبه صائحاً : هذا طلبة أمير المؤمنين . واتفق أن مر بالسوق معن بن زائدة فاستجار به الرجل فأجاره وأخذه إلى بيته . وذهب الذي عرفه إلى باب الخليفة يشكو أن ابن زائدة يحول بين أمير المؤمنين وبين من يطلب من العصاة . فوجه إلى معن من يحضره فقدم بعد أن أوصى أهله ألا يدعن أحداً يقرب الرجل وفيهم عين تطرف . فقال المهدي : يا معن ! أتجير علي ؟ قال نعم.فاشتد غضب المهدي فقال معن : يا أمير المؤمنين قتلت في طاعتكم في يوم واحد خمسة عشر ألفاً في اليمن.ولي مثل ذلك البلاء في أيام غيره فما رأيتموني أهلاً بأن تهبوا لي رجلاً واحداً استجار بي ؟ فأطرق المهدي طويلاً ثم رفع رأسه وقد سرى عنه وقال : قد أجرنا من أجرت . قال معن : إن رأى أمير المؤمنين فيكون قد أحياه وأغناه . فأمر المهدي له بخمسين ألف درهم فقال معن إن الصلات على قدر الذنوب فجعلها مائة ألف وعجلها له ... فعاد معن إلى صاحبه فقال خذ صلتك والحق بأهلك وإياك ومخالفة خلفاء الله .

ويروي ابن عبد ربه في كتاب الأجواد قصة أبي دلامة الشاعر الساخر مع المهدي حين أنشده أبياتاً أعجب بها فقال المهدي : سلني وأفرط ما شئت . قال : كلب يا أمير المؤمنين أصطاد به . قد أمرنا لك بكلب أهاهنا بلغت همتك ؟ وأمنيتك ؟ قال : لا تعجل علي يا أمير المؤمنين فللكلب بقية ؟ غلام يقود الكلب ؟ قد أمرنا لك بغلام قال وخادم يطبخ الصيد فأجابه قال ودار نسكنها فأمر له بها : وجارية تدبر أمرنا فأمر بالجارية فقال أبو دلامة فبقي الآن المعاش فأقطعه المهدي ألفي جريب عامرة وألفي جريب غامرة . قال : وما الغامرة يا أمير المؤمنين ؟ قال التي لا تعمر فقال : أنا أقطع أمير المؤمنين

خمسين ألفاً بين فيافي بني أسد قال : قد جعلتها كلها عامرة . فقال أيأذن لي أمير المؤمنين بتقبيل يده فقال : أما هذه فدعها فقال أبو دلامة : ما منعني شيئاً أيسر فقداً على أم ولدي من هذا ...

ويحكي ابن عبد ربه في كتاب الغناء . أن أشعب المعروف بالبخل كان يختلف إلى قينة (مغنية) في المدينة يطارحها الغناء،فلما أراد الخروج مرة قال لها : ناوليني خاتمك اذكرك به فقالت : إنه ذهب وأخاف أن تذهب ولكن خذ هذا العود فلعلك تعود . وناولته عوداً من الأرض .. ثم ذكر حكاية أخرى عن أبي الحارث جميز وقينة بالمدينة قضى لديها صدر نهاره فجعلت تحدثه ولا تذكر الطعام فقال : ما لي لا أسمع للطعام ذكراً قالت سبحان الله أما تستحى ؟ أما في وجهي ما يشغلك عن هذا فقال : جعلت فداك . لو أن جميلاً وبثينة قعدا ساعة واحدة لا يأكلان لبصق كل منهما في وجه صاحبه وافترقا !!

ويذكر ابن عبد ربه في مكان آخر قصص المتنبئين . وذكر أن رجلاً ادعى النبوة في الكوفة فصار إليه بعض أهلها مع صديق له أعور فسأله : أنت نبي قال نعم . وما معجزتك قال أنت أعور العين اليمنى فاقلع عينك الثانية ثم أدعو الله فترجع مبصراً . فقال : الأعور أنا أول المؤمنين بك ! وتنبأ رجل وسمى نفسه نوحاً صاحب الفلك وذكر أنه سيكون طوفان على يديه إلا من اتبعه فاستتابه الوالي فلم يتب فأمر بصلبه . فنادى بعض أصحابه وهو يصلب : أتسلمني الآن فقال : قد علمت أنه لا يصحبك من السفينة إلا الصاري ! وفي باب الحمقى ذكر أن معاوية بن مروان وقف على باب طحان ورأى حماراً يدور بالرحا وفي عنقه جلجل يضرب فسأل الطحان فقال : ربما أدركني سأم أو نعاس فإذا لم أسمع الصوت عرفت أن الحمار وقف فقال ابن مروان : أرأيت إن وقف وحرك بالجلجل رأسه هكذا فقال الطحان : من للحمار بعقل كعقل الأمير ...

قد لا يكون هذا القصص كله من التاريخ الرسمي ... بلى ! ولكنه دون شك هو الرديف له . إنه لا يخرق بك الزمان إلى تلك العصور الأولى ويثير حولك من خلال الضباب الماضي والرؤى إلا مثل هذا القصص ؟ ألست معي في ذلك .

هناك كولومبوس آخر

كلنا نعرف أن مكتشف البر الأمريكي هو كريستوف كولومبوس. ذلك ماتعلمناه في المدرسة ونعلمه لمن بعدنا. وبعض الناس يجادل في هذا فأهل النروج يدعون ذلك، ونحن العرب نجتذب شرف الكشف إلى جانبنا أيضاً. وما العرب ولا النروجيون أعني ولكن ماذا ترى لو ظهر منافس لا من هؤلاء ولا هؤلاء ولا من غيرهم ولكن لكريستوف كولومبوس نفسه وكان معه في رحلته وهذا المنافس يضع اسمه بجانب اسمه ويدعي من المجد ما يدعيه كولومبوس نفسه. يناصفه على الكشف العظيم؟ أهناك كولومبوس آخر!!

هذا السر كشفه بين من كشفه أديب مغمور هو آلان بومبار، سجله في كتاب سماه (عظماء الملاحين الغربيين) محطماً بذلك أسطورة كولومبوس، والتمثال الذهبي الذي يقام له في النفوس؟.. وما الأمر بسر فقد كان موضوع محاكمة امتدت عشرين سنة في القرن السادس عشر (ما بين ١٥١٥ و ١٥٣٦). وكان السؤالان المطروحان في التحقيق: هل كان كولومبوس يعلم أن بنزون كان على وشك الذهاب على نفقته الخاصة وباثنين من سفنه لأرض كان يعلم بوجودها وراء المحيط نتيجة دراساته؟ وهل أفضى بنزون بهذه المعلومات إلى كولومبوس؟ ولعل المنافس المجهول كان رابحاً الجولة على كولومبوس لو امتد به العمر ولكنه مات بعد اكتشاف أمريكا سنة ١٤٩٢ بسنة واحدة... وطوي اسمه من الفخر ومن حديث الناس وبقي الغار لكولومبوس وحده!

هذا الرائد المكتشف الذي كان له الفضل الحقيقي في الكشف اسمه : مارتن بنزون ! يوم أثيرت القضية كان بنزون قد مات قبل ٢٣ سنة وكان كولومبوس عاش بعده ثلاث عشرة سنة مضى فيها مرتين إلى البر الذي اكتشف وانتهى فقيراً منكوراً ! .. فمن هو مارتن بنزون الذي سقط اسمه في التاريخ ؟ غرق في النسيان ككل غريق ؟ وأتى الموج على اسمه في الرمال ؟

الرجل لم يكن مجهولاً في عصره. كان من ربابنة البحر المشهورين. محنك شجاع. كسب النصر لاسبانيا على البرتغال. وكان على علاقة برهبان دير رابيدا الذين كانوا يناقشونه بالفلك. وذات يوم هبط الدير كريستوف كولومب مع ابنه غاضباً على ملك البرتغال الذي رفض مشروعه بالإبحار من الغرب إلى الهند. وجمع رهبان الدير بين كولومبوس وبنزون. جمعوا بين الحالمين بالمشروع. وكان كولومبوس ملاح الغرفة النظري وبنزون ملاح البحار العملي. وكولومبوس يحلم بالذهب. أما بنزون فيحلم بالمعرفة والكشف. وكولومبوس تعوزه المعارف وبنزون يعوزه المال. ورجلا كولومبوس لم تبتلا بالبحر أما بنزون فكان غائصاً حتى العمق في الماء. وحين وافقت ملكة اسبانيا على المشروع وتحويله كان بنزون هو الذي تكفل بتهيئة السفن الثلاث التي أبحرت في المحيط وهو الذي تدبر مؤونتها وجمع بحارتها وجوده هو الذي أقنع البحارة بالمشروع فتطوعوا فيه. كان موضع الثقة. اقتنعوا معه أن هذه البعثة ليست مغامرة عبثية ما دام بنزون قد وعدهم بالثروة والعودة. قوله ضمانة. وقد وظف قسماً كبيراً من أمواله في المشروع. وأبحرت المراكب الثلاثة في بحر الظلمات نحو الغرب. يقود واحدة منها كولومبوس والثانية بنزون. كان الأول هو القائد الإسمي للرحلة أما مسيرتها الفعلية فكانت دفَّتها بيد بنزون.

وطبيعي أن تثور الخلافات بين الاثنين المتباينين. توقفا في جزر كناري

لإصلاح دفة إحدى السفن واختلفا على المشاكل المادية ... كل هذا حكاه كولومبوس نفسه وليس بنزون . ولم يكن مجموع الملاحين المغربيين كبيراً : أربعين على سانتا ماريا وستة وعشرين على الثانية بنتا وأربعة وعشرين على الثالثة نينا . وكان بينهم عدد من المحكومين بالسجون والاعدام بسبب عقيدتهم الإسلامية أو بسبب جرائمهم !

قبل مضي ثلاثة أسابيع كان التذمر قد بدأ بين البحارة والشك في المشروع كله يتضخم أين يقودهم كولومبوس وبنزون؟ إنهم يبتعدون أكثر فأكثر عن البر الاسباني ولا بد من حفظ خط الرجعة ... تذمر كياني كان يصعق البحارة ... وفي حين كان كولومبوس يحاول إزالته بالإقناع والحسنى لشعوره بحاجته إلى كل فرد . كان من رأي بنزون شنق واحد أو اثنين من الملاحين . إن قائد السفينة هو سيدها الوحيد بعد الله . ذلك قانون البحار ! واكتفى كولومبوس بتثليم سكاكين الغاضبين . بعد شهر وستة أيام صاح المراقب في أعلى السفينة بنتا :

ـــ الأرض ! الأرض !

كان ملك اسبانيا قد وعد بمنح أول من يرى الأرض عشرة آلاف دينار مغربي . ولكن كولومبوس حرمه منها . ولعله كان من مساجين المسلمين فإنه حين عاد إلى اسبانيا تخلى عن المسيحية وانضم إلى صفوف المحاربين المسلمين في الجبال وحارب إلى جانبهم حتى الموت ! وغاب اسم جون رودريغر وهو اسمه النصراني ليفوز كولومبوس بكل شيء : إمارة البحر ونيابة الملك وحصة كبيرة مما عادت به البعثة إلى اسبانيا من الذهب والبضائع الغريبة !

لم ير السكان الأصليون في الصلوات التي قام بها القادمون ولا في نصب الصليب ولا في كتابتهم على الورق أو في السفن الضخمة التي قدموا بها

سوى مجموعة طقوس سحرية غريبة .. كان كولومبوس مقتنعاً أنه وصل الصين أما بنزون فأصر على أنها أرض لا يعرفها ووقع خلاف واضح بين الرجلين لم يجد معه بنزون بدأ من الهرب باتجاه الجنوب الشرقي ليصل إلى جزر هاييتي في حين تابع كولومبوس الطريق نحو جزيرة كوبا حيث وصله خبر بأن بنزون عثر على الذهب .

وفي عجلة كولومبوس لإدراك بنزون اندفع بسفينته سانتا ماريا فاصطدم بالصخور وتعطلت سفينته واستحالت إعادتها إلى المياه العميقة ... فلم يجد كولومبوس سوى أن يترك ملاحيها على البر بعد أن بنى لهم قلعة صغيرة Ciudad de la Navidade (أي قلعة ميلاد المسيح) .

وحين وصل هاييتي كان بنزون قد غادرها ... وشعر بالخوف المرعب من أن يسبقه إلى اسبانيا ويكسب السبق في نشر نبأ الاكتشاف.ولحق به في البحر حتى أدركه . وقام شجار عنيف مأسوي بين الرجلين ... نقطة الضعف عند بنزون أنه كان يعرف قانون البحر وأنه كان يعرف أن ملك اسبانيا أعطى القيادة لكولومبوس ... وهذا يعني أن بإمكانه شنقه ! وعرف بنزون كيف يهدئ كولومبوس مذكراً إياه بجميع الخدمات التي قدمها للرحلة كلها !

حين صارت جزر آصور على مرأى من السفينتين ثارت عاصفة هائلة فصلت السفينتين فقلق كولومبوس أشد القلق.لقد غاب بنزون عن الأنظار . وجزر آصور برتغالية وقد يحتجزه ملك البرتغال الذي يعتبر الهند ملكه . لكن الهنود الأربعة الذين جلبهم معه . أقنعوا نائب الملك بألوانهم الحمراء أنهم ليسوا من الهند . فأطلق كولومبوس وسفينته . لكن الرياح ألجأته مرة أخرى إلى أرض البرتغال فتظاهر بأنه بعض النبلاء وانتهز أول فرصة وأبحر ...

سبق بنزون في الوصول إلى اسبانيا بنصف يوم فقط . فسفينة صاحبه أوصلها الريح إلى شمال البر الاسباني ومن هناك أرسل بنزون رسالة إلى الملك

بالكشف الذي تم على يديه لأنه كان مريضاً بالحمى لا يقوى على السفر . وحين وصلت رسالته متأخرة إلى ملكي اسبانيا كان الرجل قد توفى في دير رابيدا نفسه ! . .

مرة أخرى كولومبوس هو الذي روى كل ذلك وضاعت رواية بنزون . طواها الموت . أكانت تختلف ؟ أكنا نعرف مكتشف أمريكا باسم مارتن بنزون بدلاً من كريستوف كولومب الجنوي ؟ من يبقى على قيد الحياة هو المحق دوماً وهو الذي يروي الأحداث على هواه . ترى لو عاش الرجل أما كانت القصة مختلفة ومختلفة جداً ، الموت وحده جعل دور بنزون يتقلص في رواية كولومب إلى دور مدير لدفة إحدى السفن الثلاث لا أكثر ولا أقل ليبرز اسم كولومبوس بوصفه الملاح الذي قهر بحر الظلمات واكتشف أمريكا وليدخل التاريخ من أعرض أبوابه . . .

في هذه المرة لا يحلم الأديب ولا يتصور ولكن يبحث ويحقق . . . وفي هذه المرة يصدق الأدب ويكذب التاريخ !

فإذا سئلت بعد اليوم عن مكتشف أمريكا فهل تذكر يا ترى اسم مارتن بنزون ؟ على الأقل بجانب كريستوف كولومب ؟

إنتقام الغضب

برتولد بريخت اسم يطن كالأجراس الضخمة في المسرح المعاصر. يذكرونه كما لو كان أحد القديسين الأعلين على الخشبة المسرحية. وتنحني الأقلام أمامه والهامات. منذ سنين مات الرجل ولكنه ما يزال خاطراً حياً في كل مناسبة مسرحية، في كل إخراج مبتكر، في كل ندوة تحسبه شكسبير العصر. أتراه باقياً في هذه المكانة؟ كثيرون يشكون في ذلك.ولكن بريخت هو الآن بريخت ذو السواد الكبير الذي يملأ المسرح ويزيد. يقولون إن رعب العصر كله قد تخثر في أصابعه وتحت قلمه...

هذا الرجل ترك وراءه ثروة تزيد على ثلاثين مسرحية. كتب بعضها إسقاطاً على النظام النازي الذي شرده. الأدب بدوره وسيلة انتقام كالتصوير. ألم يضع ميكل أنجلو بعض أعدائه من الكرادلة في الجحيم الذي صوره على جدار كابيلا سيستينا؟ وكثيراً ما يكون الأدب أكثر ذبحاً من التصوير ومن التاريخ نفسه. التاريخ لا يتكرر. يمر مرة واحدة بمآسيه وفي فجائعه وملوكه والأحداث. يعاش مرة ثم يمضي في هوة العدم. أما العمل الأدبي فيظل يقرأ أو يمثل ثم يقرأ ويمثل أبداً. لا نهاية لتكراره. والأديب الذي يسقط فيه كل سخائمه أو أحقاده أو أفراحه وتمجيده إنما يخلدها. وما هو يا ترى أكثر خلوداً الأدب أم التاريخ؟

وبريخت هرب من ألمانيا إلى الدانمرك بسبب ميوله الاشتراكية، إثر وصول هتلر والنازية إلى الحكم في ألمانيا. ثم انتقل منها إلى فنلندا ثم قضى قسطاً

من حياته هارباً في أمريكا حتى استقر في ألمانيا الشرقية بعد الحرب الثانية. وانتقم الرجل في أكثر من مسرحية كتبها لهذا المنفى الإرغامي الذي ذاقه. كانت عقدته التي تخفي وتظهر تارة بعد تارة. ولعل مسرحيته صعود آرثورو وي كانت وثيقة الإدانة للنازية والصورة الكاريكاتورية لصعود هتلر إلى الحكم حتى الذروة!

تجري المسرحية في شيكاغو في الثلاثينيات يوم كان في ذلك البلد مجرم لعله من أكبر الرؤوس التي عرفتها المافيا في تاريخها: آل كابوني. استعار بريخت صورة عصابة المافيا هذه ورئيسها، ليسقطهما على هتلر والنازية تحت اسم أرثورو وي وعصابته. وكما اعتمد هتلر على الرأسمالية الألمانية وعلى تجار السلاح وفيها كروب وفولف وتيسن، وهددها ومناها الوعود حتى جعلته يدها الحديدية كذلك فعلت عصابة أرثورو وي... ولكن مع احتكار مجموعة من تجار الخضار جعلها بريخت تجارة الملفوف والقرنبيط وكما كان على رأس الحكم في ألمانيا في تلك الفترة عسكري عجوز محترم هو المارشال هندنبرغ الذي سلم السلطة إلى هتلر سنة ١٩٣٣ كذلك كان في المسرحية رئيس بلدية عجوز محترم من الجميع اسمه هند سبورو. وكما اتهم معتوه ألماني اسمه فان درلن بحريق الرايخستاغ، مجلس النواب الألماني وأعدم كذلك يظهر في المسرحية ذلك المعتوه باسم فيشس السكير المعتوه. تماماً كما يظهر مقابل دلفوس رئيس النمسا في ذلك الحين الذي اغتالته النازية ومشت في جنازته، شخصية دلفوت... ولزيادة إبراز التشابه عمد مخرجو المسرحية إلى عرض العناوين الكبرى للصحف الألمانية في تلك الفترة خلال فصولها على المسرح كأنهم يقولون لئلا ننسى! لئلا ننسى!

وتبدأ المسرحية بظهور تجار الملفوف وهم يتشاكون سوء الأحوال

الاقتصادية ومجيء رئيس العصابة أرثورو وي يعرض عليهم خدماته وإلا أقنع تجار التجزئة بالتعامل مع أي تجار آخرين للخضار. وعرض احتكار تجار الملفوف للخطر! ببساطة لأن تجار التجزئة يفضلون شراء الخضار على شراء الأكفان! وعلى الرغم من رفض أركان الاحتكار لخدمات أرثورو وي إلا أنهم أبقوا الباب مفتوحاً معه لئلا يفشل الباب الآخر المفتوح بينهم وبين رئيس البلدية هند سبورو بالموافقة على منحهم قرضاً ينقذهم دون أي ضمانة سوى سمعته هو نفسه بالطيبة ونظافة اليد. وقد عرفوا أن رئيس البلدية يستريب بطلبهم فبدأوا بمهاجمة ونبش ماضيه والمنة عليه بأنه حين كان مدير أحواض السفن إنما نجح بالمنصب بأموال أعضاء احتكار القرنبيط نفسها.وطمأنهم أحد الأعضاء بأن العجوز طيب ولا بد أن يقبل.ولو أنه يقول إن الميزانية العامة ليست طبقاً يخطف منه كل من شاء لقمة الأكل ولو أنه أيضاً لا يأبه لاحتكار الملفوف ولكن لمصلحة المدينة.

وكانت الأزمة تزداد سوءاً مع أحد تجار الملفوف. يقول بعضهم إنه انتقل من صديق إلى صديق يلتمس قرضاً دون جدوى: هذا غائب منذ أيام. وذاك مختف في الحمام: هذا زمان لا ترى فيه من أصدق صديق إلا عجزه والأخ قبل أن يلتقي بأخيه يشتري لنفسه حذاءً بالياً خشية أن يسأله أخوه عن قرض. يجري ذلك وأرثورو وي يتجول حول البورصة يريد حل الأمور بالمسدس. والبلد امتلأ بأعمال النهب والابتزاز والدماء. ويحتال بعض ملوك الملفوف على رئيس البلدية العجوز فيقدمون له ٥١٪ من أسهم شركة النقل البحري تكريماً له على ما قدم من خدمات للمدينة لا بالمجان ولكن بنصف ثمنها. ويتردد العجوز فيذكرون له أنهم اهتزوا لتمسكه بالمثل العليا وشعروا بتفاهتهم أمامه ولا يريدون إلا التكفير عن خطيئتهم ببيع بعض أسهمهم له لأنهم لا يريدون أن

يعلنوا للناس إفلاسهم ببيعها العلني . ويطمئنونه أن لا شروط لهم في هذه الصفقة ولا طلبات . ويقبل العجوز فيمر القرض من المجلس البلدي بحجة أنه لإصلاح الميناء وتشرف عصابة أرثورو على الإفلاس... لولا أنه جاءها الإنقاذ من حيث لا تحتسب !

وجاءها الأنقاذ حين علمت أن العجوز رئيس البلدية قبل منح القرض مقابل الرشوة المبطنة. فهب أعضاء العصابة إليه وسدوا مداخل بيته الريفي ودخل أرثورو عليه يفرض نفسه بأنه إنما يحمي صغار الباعة من الشرطة المرتشية ومن رقباء التسعيرة المعتدين كما يحميهم من كبار التجار أصحاب الديون عليهم . وحين يقول هند سبورو : وما علاقة ذلك باحتكار الملفوف يجيبه بأنه يعرف أن له ٥١ ٪ من أسهم المرفأ والاحتكار. ويبكي ويتوسل.ويتصلب العجوز قائلاً أفضل أن أفقد كل شيء على أن يقترن اسمي بالمبتزين أمثالك . . .

ويحاول (احتكار الملفوف) إنقاذ الرئيس العجوز بأن يشهد واحد منهم أن أسهم مرفأ النقل ما تزال ملكاً لهم . ولكن أصحاب الصحف كانوا يتصايحون في الشارع بأنه قتل ! ويخضع العجوز لارثورو وي المعروف لدى الجميع بعدوانه وابتزازه فيجعله مندوباً له .

هنا يأتي المحقق ليسأل أرثورو عن عقود إصلاح الميناء التي تثبت جدية القرض أو عدم جديته فيقول : لم أسمع بها . أما الأموال التي قدمت قرضاً فقد أخذها الرجل الذي قتل وقد يكون انتحر لأنه نصاب فيقول المحقق : ولماذا لا يكون هند سبورو نفسه هو النصاب ؟ ويسود الهرج والمرج في القاعة فيما يخرج العجوز منها مستنداً إلى ذراع أرثورو . . .

ونرى بعد ذلك تدرب آرثورو على الخطابة أمام المرآة بشكله الكاريكاتوري وإشاراته المضخمة وخطابه أمام باعة الخضار بتطوعه لحمايتهم مقابل ٣٠٪ من أرباحهم وحين يحتجون يصيح بهم : الموت وحده ينال

بالمجان . وكل ما عداه يكلف ! ويصيحون إن دكاكينهم آمنة فيذكرهم بالحانات التي حطمت والخمور التي أريقيت والنيران التي اشتعلت ... لا يُعلم فاعلوها !

وتمضي المسرحية ، ترافقها موسيقى جنائزية من شوبان. فتصور النازية وهي تتحول إلى ما يشبه الدين إلى وثنية جديدة وتصبح العصابة زمرة من اللصوص والقتلة ! ..

ويموت القضاء الألماني في حين يظهر أعوان العصابة وهم يحرقون مخازن الميناء ويتهمون المعتوه فيسش . ويأتون بشاهدة جميلة تحمل طفلها الصغير لتشهد بذلك ... وبعد أن يمد أرثورو وي سيطرته على تجار التجزئة وعلى تجار الملفوف الكبار لم يبق من يقف في وجهه وما يمنعه من التسلط على البلد المجاور (سيسو) ويقصد المؤلف بذلك النمسا وينجح في السيطرة عليها بعد أن يقتل زعيم مستوردي الخضار فيها وهي مدام دلفوس. وعلى الرغم من أن الجميع يعرفون أن ملفوف أرثورو ملطخ بالدم فإنهم لا يجدون مناصاً من التعامل معه في حين يبدأ هو نفسه في تصفية الجميع من العجوز هند سبورو إلى احتكاريي الملفوف إلى بعض أعوانه أنفسهم !

ويلعلع صوت آرثورو وي آمراً الرشاشات والمدافع أن تستعد لإحلال السلام الذي توصل إليه في المدن الأخرى : من برنستون ، إلى بيتسبرغ إلى سنسناتي ونيويورك وتختلط كلماته بدق الطبول ...

هذه الصورة الكاريكاتورية كتبها بريخت حين كانت النازية في صعودها الأعظم . حين اتخذت صورة الدين الوثني الجديد بكل ما في الوثنية من ثورة الشعائر والإعلام ، حين كانت الصلبان المعقوفة تملأ الأجواء ، وفرسان الجرمن القدماء يدقون طبول الحرب على موسيقى واغنر وفلسفة روزنبرغ ونيتشه ، وخرافة التميز الآري تعمي وجدان الملايين من الفتيات والفتيان وتجعلهم يتوهمون

أنهم أبناء السماء، والوحوش المفترسة تطوف بينهم تمنحهم رعشة الحيـاة العظمى التي تجعل الحقيقة أسطورة والأسطورة حقيقة .

في المستقبل حين ينسى الناس ـــ وما أسرع ما ينسون ـــ هتلر والنازية سيظلون يتذكرون تفاصيل أعمالهما في هذا العمل الأدبي ويهزأون .

أرأيت أي انتقام سلطه بريخت على التاريخ؟ وعلى النازية وكله من خلال تجارة الملفوف !

عناقيد الغضب

... وهذه بدورها قصة منتزعة من تاريخ الولايات المتحدة الخلفي . من القاع الصامت المسحوق ... لا يدري به أحد . صاحبها جون شتاينبك كتب فيها تاريخ مجموعة من المزارعين الفقراء أيام الأزمة الاقتصادية الكبرى التي اجتاحت الولايات المتحدة سنة ١٩٢٩ و ١٩٣٠ ، فأثار الضجة الكبرى عليه وعلى ما كتب ... ولكنه صار بالرواية من أعلام الأدب الأمريكي . لقد توفي منذ نيف وخمسة وعشرين سنة فقط . ولم يكن في خاطره أول الأمر أن يكون شيئاً في عالم الأدب . لذلك تعاطى أعمالاً تافهة بعد تخرجه من جامعة ستانفورد : صار عاملاً في الحقول وموظفاً في أحد المختبرات وبناءً، وحارس أبنية وموظفاً في معهد أبحاث وبحاراً وخادم مطعم ومراسل صحف . وعانى الكثير قبل أن يحاول التعبير عن هذه المعاناة . لكن خبراته المبكرة والمباشرة بالحياة وتراكم التجارب المتنوعة لديه اختزنت في صدره مادة دسمة غنية للمستقبل الأدبي الذي ينتظره . ولعبت دورها في أدبه مواهبه . كان دقيق الحس ، رهيف الملاحظة للأشياء حوله وللحياة اليومية ، ناجحاً في عرض الآراء العامة وفي مناقشتها وتعليلها . ومع أنه لم يكن في القوة الفنية بمنزلة فولكنر أو همنغواي فإنه لم يكن أقل منهما إجادة في إبراز شخصياته النازلة على شواطىء كاليفورنيا وفي أوديتها البعيدة الخضراء الصخرية الذرى . هناك اختبر بعمق طبائع الناس والعادات واللهجة وأساليب التصرف بالحياة وحشد كل ذلك ما بين سنتي ١٩٢٩ وسنة وفاته سنة ١٩٦٨ في عدد من مجموعات الأقاصيص ، وفي ست عشرة من الروايات

أوصلته إلى جائزة نوبل سنة ١٩٦٢ ... ولو شئت تخير أبرز أعماله لما ترددت في اختيار رواية عناقيد الغضب التي أصدرها سنة ١٩٣٩ والحرب العالمية الثانية على الأبواب ... وهي التي نال عليها الجائزة. بعد أن كانت أحرقت وصودرت وهربت بالملايين ولعنها النقاد وقدمت فيها العرائض إلى الكونغرس ورفض أصحاب المكتبات عرضها وكانت مادة لخطاب من الرئيس روزفلت يومذاك وتعديل في القانون. معظم أولئك الذين كتبوا حول الأزمة الاقتصادية العالمية سنة ١٩٢٩ ــ ١٩٣٠ إنما يكتبونها من وجهة نظر الرأسماليين الكبار والشركات الضخمة التي تعطلت والرساميل التي ذابت والذين انتحروا أو باعوا أسهمهم وأملاكهم... ندر من الكتاب من نظر في القاع، قاع المجتمع، ونظر بعمق إلى ما يجري فيه... الذين تدوسهم العجلات لا مكان لهم في التاريخ. الأدب وحده حين يأخذ منهم قطاعاً محدداً ويوجه إليهم أنواره يكشف معاناتهم الخرساء. وقد نتصور أنه يبالغ فيها ويضخم ولكنه بكل تأكيد لا يصل درجة تصوير ألم فرد يجوع أو توجع طفل لا يجد الدواء.

شتاينباك تصدى لكتابة هذه الفترة المأسوية ولكن في القاع. مع الذين عاشوها بجلودهم. وكتبها بعد أن قام بنفسه برحلة عبر الولايات المتحدة مع قافلة من مزارعي أوكلاهوما وهم في طريقهم إلى كاليفورنيا... كانوا يسمونه كاتب الطبقات الفقيرة وكذلك كان...

تبدأ القصة في مزارع الجنوب الغربي من الولايات المتحدة ومع لحوق الخراب بهذه المزارع، وخاصة الصغيرة منها. لقد افتقرت بالجفاف الشديد. صارت قشرة رقيقة صلبة تحت أشعة الشمس. وزحف فيها النمل والحشرات ويبست الحشائش وحملت الرياح الحارة مع الغبار الأعواد اليابسة عبر الحقول.

وأسرة جود كانت إحدى الأسر المنكوبة في الريف الواسع. ونجد توم

جود يرافق شاحنة نقل وهو عائد إلى اسرته من السجن. وراى في طريقه رجلا يصفر بالغناء. إنه الواعظ القديم ولكنه ترك الوعظ الآن وشرد في الحقول يشرب. وقد عرف من جود أنه قضى أربع سنوات في السجن وأن أباه سرق بيتاً قديماً مهجوراً وجره نحو أرضه لكنه الآن مهجور. لم تكن أسرة جود مالكة للأرض التي تزرع ولكنها كانت تستأجرها كالآخرين. ومندوبو الملاكين كانوا يأتون فيتحدثون من نوافذ سياراتهم معهم:

— أنتم تعرفون أن الأرض تزداد ضعفاً. تعرفون ما يفعل القطن بالأرض... وحين تفشل المحاصيل فالمصير إلى البنك الذي لا يتنفس الهواء ولكن الأرباح والنقود... ويصل مندوبو الملاكين أخيراً إلى أغراضهم: إن رجلاً واحداً على جرار أكثر جدوى من اثنتي عشرة أسرة تزرع... والبنك لا يرحم! إنه في النهاية هو مالك الأرض المرهونة لديه. إنه الغول. وإذا حاولتم الحيلولة بينه وبين ملكه تصبحون قتلة ويطاردكم القانون وتسأل النساء وأين نذهب؟

— حيث يحلو لكم ولكن نحن لا ندري أين؟

وتأتي الجرارات كالزواحف الضخمة لتقتحم الحقول بالقوى الخرافية. السائق لا يعرف أنه في كل جولة يقوم بها يشرد مائة أسرة. ليس هو المسؤول. هو مجرد منفذ بالأجر لطلب المصرف. وأصاب الجرار جانباً منزل جود فمال على جنبه وأضحت نوافذه كعيون الأعمى تنظر إلى السماء.

هكذا وجد جود منزله القديم.ومر مزارع قديم يعرفه فسأله جود: أين أهلي؟ فعرف أنهم ذهبوا على العربات إلى منزل عمه جون وفي نيتهم شراء سيارة بما يحصلون عليه من جمع القطن والانطلاق إلى الغرب. لا شيء هنا. الناس تتسول العمل! والمصرف جمع الأراضي هنا بعضها إلى بعض ليكون دخلها أقل كلفة! وقبض الثلاثة على أرنب بري فشووه للعشاء. وتحدث القسيس القديم

عن حياته البرية ثم اتفق مع جود على الذهاب إلى أهله الذين سيقصدون الغرب بعد أسبوعين كما فهم!

وفاجأتهم من بعيد أنوار سيارة قادمة. إنهم الحراس. واختبأوا منهم ثم انصرفوا إلى كهف قريب. وينتقل بنا شتاينباك إلى معرض للسيارات القديمة. ركام من الحديد مصفوف بعضه بجانب بعض. و جود الأب يختار سيارة لا تساوي أكثر من ٢٥ ــ ٣٠ دولاراً فقط. ذلك كل ما معه. إنه يريدها شاحنة لتتسع للأسرة ووصل الابن وهم يستعدون للرحيل. ففاجأ أباه وهو يضرب المسامير في السيارة.ثم رأى أمه وكانت يائسة من رؤيته قبل الرحيل. وحسبته هرب من السجن ولكنه طمأنها بأنه نال العفو الشرطي. وعليه مراجعة الشرطة كل شهر.

الأسرة كانت كبيرة ١٢ شخصاً تولى آل قيادة السيارة والأب والعم بجواره وأخوه نوح وتوم وصهرها وزوجته الحامل مع الجدين والأخوين الصغيرين فوق الحاجات المتراكمة في الخلف... ومعهم القسيس الذي أصر على مرافقتهم وهم كارهون. باعوا كل ما يمكن أن يباع كغيرهم وأحرقوا الباقي واستلموا طريق الغرب إلى كاليفورنيا... وبدأت رحلة العذاب. إعلان مطبوع على ورق برتقالي هو الذي أثار المسيرة كلها. كان وعداً بالعمل هناك. جمعوا ما معهم فكان ١٥٤ دولاراً. والمسافة ألفان من الأميال والطريق رقم ٦٦ الذي يقود الجميع عليه سيارات من كل نوع،والشمس تصب أشعتها كاللهب على الأسفلت والناس. والقوافل تزحف. تهرأت بعض الإطارات ونصحهم البائع حين توقفوا لشراء غيرها أنه رأى الكثير من المخدوعين العائدين ولكن الإعلان البرتقالي بيد الأب كان أقوى جاذبية.

ولا تسل عما أصاب السيارة على الطريق من فوران وإصلاح وبحث عن قطع تبديل ونفاذ وقود أو زيت. ولا ما أصاب الركب من عطش وإرهاق

ومفاجآت عسيرة . وخمسون أو ستون سيارة تسبقهم إلى الغرب وتملأ خزاناتها من محطات صدئة ، كريهة المراحيض مليئة بالذباب ... ولكنها تسبقهم !

المدن التي مروا بها على الطريق كانت تربكهم وتفتح أعينهم بالطول مع أفواههم : ما هذا ؟ كانوا يتوقفون من حين إلى آخر للأكل والنوم . وفي إحدى المرات وجدوا سيارة متوقفة بركابها فوقفوا قربها وتجاذبوا الحديث . صاروا جيراناً . وكان الحديث عن كاليفورنيا والأحلام ... ومات الجد فدفنوه على الطريق وهم يخشون أن يلاحقهم القانون لو سألت الحكومة عنه ! دفن دون إجازة ... الآخرون لهم مآسيهم مثلهم على الطريق إلا أصحاب السيارات الفارهة ولكن إلى أين يذهبون بها ؟ وترافقت الأسرتان على الطريق ، لأن السيارة التي كانت متوقفة تتسع للزيادة من ركاب سيارة آل جود ... أكثر ما أزعجهم أن القانون كان يمنع النوم على الطريق وكانوا يبحثون عن مخابىء ليناموا في الدغل . وتمضي الرحلة على هذا المنوال حتى إذا تجاوزوا الجبال ووصلوا ... تبخرت كل أحلامهم .

النصف الثاني من الرواية يحكي كيف بلغت أعداد النازحين مئات الألوف والإعلان إنما يطلب ثمانمائة فقط ! والعمل المتيسر هو قطف الدراق لأيام معدودة أو جني القطن . والأجرة الممكنة أن يسمح لهم بأكل البرتقال أو ربع دولار في الساعة.ثم يعودون إلى التعطل والجوع.وبما أن طالبي العمل كثيرون فقد انهارت الأجور وقام أصحاب المصارف والمزارع الكبرى ومصانع التعليب باحتكار المواد الغذائية وإتلاف الفائض من المحاصيل لترتفع نفقات المعيشة وتغرق الأسر النازحة في البؤس والجريمة وتفجر الغرائز والثورة ... في أثناء ذلك كان نوح قد هرب منهم على الطريق.وانقطع الذي رافقهم فتركوه . وماتت الجدة بدورها . ومنعوا أكثر من مرة من دخول المعسكرات التي أنشأها المهاجرون.أما السادة هناك فهم المقاولون الذين يأتون بالعمال ! والإحراق نصيب المعسكرات المشاغبة ، والبائسون يهربون . كما هرب العم من المعسكر

رفض مرافقتهم في التنقل للبحث عن عمل في أي مكان . وهرب زوج الابنة الحامل التي وضعت طفلها في النهاية ميتاً.ودفعوه في النهر الذي جرف السيارة مع الأمطار الغزيرة ... ماذا كان شتاينباك يريد أن يقول في كل هذا ؟ كان يريد أن يقول :

إن الولايات المتحدة بقدر ما هي بلد الأحلام المزهرة هي بلد الويلات المتحدة . هي بلد البنس والمليارات معاً . بلد الخير الكبير والشر الكبير أيضاً ومجتمع القاع فيها هو الجزء المقابل للمجتمع المخملي أو البورجوازي الذي يكتب تاريخه المؤرخون ... وهو تاريخ زائف أو على الأقل مكتوب من جانب واحد وليس غير الأدب شيئاً يصور الجانب الآخر يصور تاريخ أهل القاع ويحفر وراء مآسيهم المنسية . إن تلك المآسي المفجعة هي ثمن رقص المنى والرؤى عند أعين أصحاب الملايين !

ترى ، في جميع التاريخ المكتوب أليس يغطي أصحاب المال والمجد والسلطة على ما يختفي وراءهم في العتم المظلمة من مآسي أهل القاع والمتربة والمعد الممزقة ؟

أساطير دخلت التاريخ

أساطير في أساطير .

لن تعرف شعباً يعيش على الأساطير ، يتنفس الأساطير ، تكوينه كله أساطير كمن يسمون باليهود . روزنبرغ ، فيلسوف النازية حين ادعى أن أصل الجرمن من قارة غرقت في المحيط الأطلسي اسمها أتلانتيد سخر منه الناس.أما حين ادعى اليهود أنهم شعب الله المختار والأمم الأخرى بهائم (غوييم) وادعوا أنهم أمة واحدة وهم أمم شتى بعدد شعوب الأرض. وإن كانوا على دين واحد قبل الناس أسطورتهم . وحين نادوا وحدهم بين أمم الله بأن الأرض التي تركوها قبل ثلاثة آلاف سنة هي لهم استجاب الناس لهذا النداء حتى العرب ! وحين ادعوا أنهم شعب بلا أرض فلهم الحق بأرض لا شعب فيها أمن على ذلك الناس . وحين ادعوا أن هتلر أحرق بالأفران منهم ستة ملايين صدق ذلك الناس. رغم أن تعداد اليهود قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها ظل ثابتاً ويا للعجب. وقد اضطهدت مثلهم أمم أخرى كثيرة ومن هتلر نفسه.وذبحت كالبولونيين والتشيك والسلوفاك واليونان والروس ، لكنهم وحدهم الذين يدعون أنهم أحرقوا وقتلوا ووحدهم الذين طالبوا ويطالبون بالتعويضات عن ضحاياهم الموهومين ويتقاضونها من الألمان منذ أربعين سنة وينصبون مشنقة اللاسامية لكل من يقول : لا ولو كان من العرب الساميين ...

ذكرني بأساطير اليهود إحدى أساطيرهم التي يطلقون ... عن تميزهم في عالم المال والنشاط البشري دون خلق الله . وهي أسطورة يصدقها الكثيرون

فالمتمولون من غير اليهود بعشرات ألوف الأضعاف. وإنما هما المال والدعاية اللذان صاغا هذه الأسطورة ومحيا أمامها القيم الخلقية والإنسانية . هل تريد القصة النموذجية لذلك ؟ فريدريك مورتون الكاتب الأمريكي ، اليهودي النمسوي الأصل أصدر كتاباً بعنوان آل روتشيلد صيغ كله لتعظيم هذه الأسرة التي ما تزال تملك مال قارون . والتي نعرف جميعاً صهيونيتها العريقة معرفتنا لثرواتها الباهظة والتي ذقنا الكثير من عقابيل أموالها وتشعب علاقاتها مع مختلف ألوان الاستعمار وبخاصة الاستيطان الصهيوني . إنها تقف فيه موقف الحصاة التي تسند الجرة !

طبع هذا الكتاب في مطالع الستينيات فنفد مرة بعد مرة. وكان الأول في كتب المبيع سنوات . وتخرج من الكتاب وأنت تتصور أن الله ما خلق ولن يخلق أكثر ذكاء وبراعة وظرفاً بين بني البشر من ماير إشيل المعروف بروتشيلد وأبنائه الخمسة ! إنهم بشر فوق البشر . ومع ذلك فالكتاب نفسه قد فضح ، من وجهه الآخر ، وإن لم يقصد ، هذه الأسطورة الضخمة التي يقوم عليها المجد الزائف كما تقوم الصخرة الهائلة على رأس دبوس ... إلا إن كنت تؤمن أن الاحتيال والابتزاز وتصيد أزمات الناس ... من العبقرية ! وقلبت سلم القيم !

يقول مورتون إن روتشيلد الجد كان يهودياً ألمانياً من هانوفر . جاء فرانكفورت وسكن في الغيتو اليهودي منها ، كغيره من اليهود . وما هو بالغيتو ولكنه حي يتجمع فيه سكنى اليهود كعادتهم في كل مدن الله . وأخذ يتاجر بالمسكوكات وتبديل العملة . ويقرض بالربا . وعن هذا الطريق تعرف على بعض أمراء ألمانيا وأيسر حاله على حساب حالهم التي كانت تسوء وتسير إلى الإفلاس . وصار ، مع أبنائه ، أشبه بمصرف صغير ما لبث أن قامت سعادته وتوسعه على مصائب الناس ونكباتهم ! شيلوخ تاجر البندقية في مسرحية شكسبير المشهورة يصر على أخذ رطل من لحم مدينه. وقد أوقفه القاضي محرجاً

له.أما روتشيلد فكان أباً لخمسة شيلوخات لم تجد من يوقف جشعها وأكلها حتى لحوم الموتى ! رأوا انهيار الطبقة النبيلة أيام حروب نابليون وإفلاس الملوك فكانوا يتخيرون الفرائس من النبلاء المفلسين ، ومن الملوك الذين يحتاجون القروض لحروبهم ونفقاتهم ويتقاضونها أضعافاً مضاعفة بعد ذلك قصوراً وضياعاً وأراضي ومزارع ... وترامى المفلسون في الشبك العنكبوتي كالذباب ! في حين كانت الخفافيش مصاصة الدماء تسكر بالدماء !

وفي مطلع القرن التاسع عشر كان ملك الدانمرك على وشك الإفلاس فطلب من عمه المتمول قرضاً مالياً . ولم يكن بوسع العم رفضه ولا إدانته خشية ألا يفي بالدين . فأدخل المرابي اليهودي في العملية . أودع المال عنده وجعله يقرض الملك المفلس بالفائدة التي يريد . ونجحت العملية التي كانت باب الثروة للأسرة . لا سيما حين عين الأمير ولدى اليهودي صرافين في قصره . أما روتشيلد فصار وكيل الأمير !

وحين هاجم نابليون بونابرت ألمانيا بين ما هاجم من بلاد أوروبا . وكان حاقداً على هذا الأمير المرابي الذي أسرع في تهريب أمواله ودفنها في المخابئ وهرب إلى الدانمرك بعد أن ائتمن روتشيلد على أسراره . فكان كمن يأتمن الجائع على طبق من الحلوى ! فقد جاء نابليون وقدم له روتشيلد دفاتر مزيفة تثبت أنه مجرد صراف مسكين في حارة اليهود لا يعلم شيئاً عن الأمير الهارب ولا عن أمواله ... ولكنه تصرف بهذه الأموال كما يشتهي . اختلسها وأقرضها لحسابه وادعى للأمير أن الفرنسيين صادروا معظمها بعد أن كشفوا مخائبها ... ومن ذا الذي يعرف الحقيقة ؟ ومن ذا يحاسبه ؟

هذه الأموال فتح بها ناتان ابن روتشيلد مصرفاً في لندن ثم أنشأ ابنه الآخر ماير مصرفاً آخر في فرانكفورت وخلال معركة واترلو جاءت الأنباء الأولى إلى لندن بفوز نابليون فهبطت الأسهم الإنكليزية في البورصة أي هبوط.

فاشترى منها الكثير، ثم بلغه من بعض عملائه هزيمة نابليون قبل ساعات من بلوغ الخبر للحكومة الإنكليزية ذاتها فباع أسهمه بأسعار بخسة جعلت الناس يوقنون بأن نابليون هو الذي ربح فتهالكوا على بيع أسهمهم تهالك الذباب بأبخس الأثمان واشترى روتشيلد، في هذه الزحمة، كل ما في السوق ... حتى إذا وصلت الأخبار الحقيقية كانت ثروة روتشيلد قد تضاعفت أضعافاً عشرات المرات ... في مدى ساعات !! ونصح الأب أبناءه بالتفرق في بلدان أوروبا حتى إذا أصاب بلد منها كارثة نجا الباقون منها. وهكذا ذهب غالوب إلى فرنسا وفيما بين الحفلات والخمر ودلع الغواني كان يعقد الصفقات بالملايين. بل اشترى أيضاً لقب بارون واستقر سلمون في فيينا وعقد الصلات مع كبار رجال الامبراطورية ... وانهمرت عليه الأموال. وذهب كالمان إلى إيطاليا وأنشأ مصرفاً في روما واشترى بدوره لقب بارون. وورث خامس الأولاد أباه في فرانكفورت ....

ونشأت شبكة مالية من خمسة مصارف في خمس دول تتعاون على استغلال أحداث أوروبا. وفي داخل هذه الشبكة الخماسية، ما بين فرانكفورت. لندن. باريس فيينا. روما كانت تدور ثروات الرأسمالية الأوروبية أو معظمها على الأقل تمول المشاريع الاستعمارية الكبرى وتدور حول المغامرات الاستعمارية الضخمة. ألسنا نذكر شراء غلادستون لأسهم قناة السويس قبل موافقة البرلمان؟ كان آل روتشيلد وراءها لأنهم كانوا الممولين!

أغريب بعد هذا أن تضع أسرة روتشيلد ملايينها المقنطرة في خدمة المشروع الصهيوني، ومنذ لحظاته الأولى؟ لقد كانت أول من دفع الأموال لشراء أراضي المستعمرات في فلسطين. والأولى في ترميم الاقتصاد الصهيوني عند كل نكبة منذ سنة ١٩٤٨ إلى سنة ١٩٥٦ إلى سنة ١٩٦٧ إلى سنة ١٩٧٣ والأسرة ذاتها كانت وراء التعويضات الألمانية لإسرائيل ووراء مفاعلها النووي وتهيئة الكوادر الفنية له. وما الذي تخسره؟ إنها تأخذ من دماء أوروبا وتضخ في

المشروع الصهيوني الكبير الذي يمكن أن نعده إلى حد كبير واحداً من أكبر مشاريعها !

ونعود إلى صاحب الكتاب فريدريك مورتون وحديثه « التمجيدي » عن هذا المال الحرام... هل اشترى المال الرجل وضميره أم كان يعبر عن القيم المقبولة في مجتمعه؟ هل فضح الكاتب الأسرة وأساليبها الأخطبوطية في امتصاص الدماء أم سجل أمجادها؟ هل كان باحثاً يروي الحقائق أم يريد إضافة أسطورة أخرى إلى الأساطير اليهودية؟ المسألة كلها مسألة وجهة نظر بلى ! وجهة نظر واختلاف حول القيم الأخلاقية والإنسانية إنها قضية تناقض في القيم والفكر. ما تراه أنت غدراً وخيانة وذبحاً حتى الشرايين يراه اليهودي براعة مشروعة ودهاء ووصولاً إلى المراد بأي واسطة. الفرق بين الخبث والذكاء هو المفقود في هذا الميزان. وحين يضيع هذا الفارق بين الذكاء السلبي والذكاء الإيجابي، حين يستوي الخبيث والطيب وتستوي الأسطورة والحقيقة تضيع في الزحام قيمة الإنسان.

آل روتشيلد اليهود النموذجيون اختاروا القيم الأولى وغطوها بآلاف الملايين فتحول فيها الشر خيراً وتحولت الخيانة والغدر براعة. ولقد بنوا لأنفسهم أسطورة ولكن هل بنوا قيمة إنسانية؟

مرة أخرى ! مورتون أراد كتابه أن يكون أدباً فكتب التاريخ ولكن تاريخ الدناءات المادية !

البيت الكبير والكوخ

أكاد أحسب أن أكثر المثقفين في الوطن العربي لم يسمعوا باسم جيلبرتو فريري . مع أن ثَم في البرازيل من يعتبره الأديب الأول وإن كان كاتباً اجتماعياً من الطبقة الأولى . وقد مات الرجل منذ عهد قريب فهو من مواليد سنة ١٩٠٠ . والباحثون في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا قد يعرفونه . لكنهم ليسوا وحدهم الذين يشيدون بما كتب عن أعمق خلجات بلاده . هو من أهل رسيفة في أقصى الشمال الشرقي من البرازيل وقد درس كل دراسته تقريباً في الولايات المتحدة فهو من أسرة بارزة ميسورة الحال شبه أرستقراطية .

وقد زار بعد دراسته معظم جامعات أوروبا ومتاحفها في ألمانيا حتى البرتغال لكنه بقي حتى موته انعزالياً. وقد رفض التمجيدات الأكاديمية التي قدمت له والكراسي الجامعية في بلاده وخارج بلاده.واكتفى بالأستاذية المميزة في بعض الجامعات الأمريكية . وقد انتخب نائباً عن مقاطعته فترة طويلة كما مثل بلاده في هيئة الأمم المتحدة .

ومع أنه رجعي الآراء في السياسة وقد تسلم رئاسة حكومة رجعية هناك ، إلا إنه في ما يكتب ظل موضوعياً جداً . وكتابه الأساسي : (البيت الكبير والكوخ) دخل اليوم في التراث الكلاسيكي البرازيلي.مـجَّـده الشيوعيون قبل الرجعيين . جورج آمادو الكاتب اليساري جداً يعتبر ظهور هذا الكتاب حدثاً هاماً في الثقافة البرازيلية وتفجيراً لكل ما يدهش فيها ، لم يكتب مثله . وناقد آخر يقول إنه أعظم المؤلفات البرازيلية وأكثرها برازيلية . . .

فما هذا الكتاب؟ الذي تقرؤه بالبرتغالية كما تجده بالإنكليزية والفرنسية والألمانية والاسبانية والإيطالية؟ إنه كتاب أنتروبولوجي أدبي ولكنه من وجهة نظر المؤرخين وضع تاريخ البرازيل في موضعه الحقيقي تكويناً وأسساً ومناهج. درس الفروع الثلاثة التي يتكون منها البرازيليون: الهنود الحمر والزنوج والبيض الأوروبيون وعناقها العناق الحميم مع الأرض البرازيلية، هذه القارة من الخير ومن التناقض ومن الغاب اللانهائي والثروة المرعبة والجوع الساحق. اللوحة التي عرضها فريري للبرازيل بأسيادها سكان البيت الكبير وعبيدها القدماء سكان الأكواخ المسكينة وبهنودها الحمر الموزعين بين أغصان الغابات، جاءت لوحة كاملة من جهة لكنها في الوقت نفسه طامنت من رؤوس المتكبرين والأرستقراطية البرازيلية. وكما أنصفت الهنود وأعادت للزنوج اعتبارهم. ذكرت الناس أن ما ينعمون به من حضارة في البرازيل فإنما هو من صنع الزنوج العبيد.

خلال ٥٥٠ صفحة مكثفة، موثقة بمائة وثلاثين صفحة من الهوامش والمراجع تقرأ البرازيل كلها من الدفة إلى الدفة لا ينقصها إلا الإطار الوحشي لجمالها الطبيعي، تقرأ كل شيء عن البرازيل والإنسان. أما الذرى الثلجية والغاب الذي يَضِلُّ فيه السواد. وأما السمك الصغير الصغير الذي يفترس السابح في دقائق، والفراش بألف لون ولون، والحيوان الغابي يرعب الفلوات والصحارى المهلكة، والمياه بعرض البحار، ففتش عنها في مكان آخر.

هذا الإنسان الذي قدمه فريري الأديب، في إطاره الأنتروبولوجي، لا بد أن يحظى بكثير أو قليل من اهتمامك عزيزي القارئ إذا عرفت أن جانباً حسناً منه كان على الإسلام. بلى! كان حتى سنة ١٨٣٦ العنصر المنتج في البرازيل وكان مسلماً مؤمناً بالله الواحد الأحد. فالكاتب في كتابه لا ينكر هذا

ولعله بالعكس يفخر به . إن القاعدة الأساسية لمعظم الزنوج (وهم الذين صنعوا البرازيل) هي قاعدة إسلامية . جذورها غارقة في الإسلام .
العبيد الذين اقتنصهم تجار النخاسة الأوروبيون في غرب أفريقيا عن سواحل الكونغو ونيجيريا وساحل الذهب ومالي كانوا مسلمين ويعرفون العربية ، وذوي حضارة متقدمة حتى على أسيادهم البرتغاليين . كانوا يكتبون العربية ويقرؤون القرآن ويلحق بهم مشايخهم من أفريقيا إلى أكواخهم العتمة في أنحاء أمريكا الجنوبية والوسطى يلقنونهم الآيات ويعلمونهم الصلاة والكتابة والأدعية ... والثورة أيضاً . صحيح أنه لم يبق فيهم من ذلك اليوم إلا الظل الباهت : أن لا يدخلوا الكنيسة إلا بعد خلع الأحذية ، أن لا يسبحوا بمسباح يحمل الصليب في أوله ولكن ينزعونه قبل التسبيح ، أن يقيموا حفلات الصوفية على الدفوف ويرددوا كلمة الله دون أن يفهموا معناها ويأتزروا الإزار الأبيض والعمائم البيضاء في هذه الحفلات ... في حين يقوم شيخ الحلقة في وسطها مكتوف اليدين ... صحيح كل هذا ولكنه بقية عهد قديم عاشه أجدادهم قبل مائتين وثلاثمائة سنة ثم انقضى أو قضي عليه تماماً منذ أكثر من مائة وخمسين سنة . أعدم ! مع اللغة العربية التي كانت ترافقه .

منذ ثلاثمائة سنة كانت الطبقة المثقفة في البرازيل هي هؤلاء الزنوج المسلمون . وكان السيد البرتغالي أمياً حتى إذا شاء أن يكتب رسالة إلى زميله الإقطاعي الأمي الآخر استعان بهؤلاء فيكتب أحدهم الرسالة بالعربية ليقرأها زميله العبد الزنجي الآخر على سيده الأمي بدوره مترجمة إلى البرتغالية ...

ويقرر فريري ما صار الآن معروفاً في التاريخ البرازيلي ، وفي غيره ، من أن العبيد الذين حملوا مرغمين على الأخشاب ، مصفدين في أعماق السفن والذين كان ثلاثة أرباعهم يموت على البحار أو من الأمراض على البر الجديد من سوء الغذاء ، هؤلاء كانوا يحملون من أجواء حضارية متقدمة. لهذا كانوا العنصر النشيط الخلاق في البلاد بل نستطيع أن نقول إنهم العنصر النبيل في البرازيل ،

لا يخفضهم فقط إلا كونهم عبيداً. ولم يكونوا بهائم للجر أو آلات للزراعة ولكنهم كانوا مادة تمدين وتحضر. كانوا اليد اليمنى للتكوين الزراعي في البرازيل كالهنود الحمر. وكان البرتغاليون من وجهة نظر محددة هم اليد اليسرى. هم الذين جاؤوها بقصب السكر وعلى أيديهم تمت صناعته. وهم الذين حملوا إليها البن فهو ثروة البرازيل بالزراعة الأولى اليوم.

وكان الزنوج المسلمون إلى هذا هم رجال المعادن واستخراج الحديد في البرازيل بطرق أرقى حتى من طرق البيض. كما كانوا سادة الرعي وتربية المواشي والطبخ. هم الذين أدخلوها إلى البرازيل وهم أجادوا إتقانها ثم أخذها عنهم أهل البرازيل. حتى الآبقون من هؤلاء الزنج العبيد كانوا ينقلون معهم الحضارة حيث يلجأون سواء إلى الغابات أم الجبال. كانوا حلقة اتصال بين السكان الأصليين وبين الحضارة. كانوا أرقى جداً من عبيد الولايات المتحدة! لقد كان منهم صانعو الحلوى التي ما تزال تحمل اسمها آلوا وباعة النسيج والصابون، ومعلمو المدارس، والمشائخ المسلمون وكانت علاقاتهم التجارية قوية جداً مع بلادهم الأفريقية في لاغوس وداهومي ونيجيريا وساحل الذهب.

وما يزال قسم من هؤلاء الزنوج تحت تأثير إسلامهم القديم لا يشربون المواد الكحولية ويطيلون في الصوم وفي صلوات العيد ويربطون بين العيد ورؤية القمر، ويضحون الأضاحي ويحملون الحجب المكتوبة بحروف غريبة لدرء العين والأمراض والأخطار...

زنوج البرازيل المسلمون كما يلاحظ فريري لم يفقدوا علاقاتهم بأفريقية رغم انتشارهم في أكواخ القارة البرازيلية وبيوت السادة فيها. كان مشايخهم يلحقون بهم ويحملون إليهم المواد التي يستخدمونها في الممارسة الدينية. كما يفتحون لهم الكتاتيب في الأكواخ لتعلم القرآن. كان المسلمون يشكلون

ما يمكن أن يسمى بأرستقراطية الأكواخ . وأخيراً تكاثرت أعداد الزنوج العبيد في باهيا ، المنطقة المقابلة على المحيط الأطلسي لأفريقيا .

بحر الظلمات كان يحمل إليها ، على الدوام ، أفواجاً منهم أشد ظلاماً في الوجوه وأكثر نوراً في القلب . وقد تكونت منهم بالتدريج جماعات ثائرة إلا إن هذه البؤر من التمرد كانت تسحق . فرسان الإقطاع وسكاكينهم كانت لا تجد أي حرج في ذبح العبيد . إنها جريمة لا يستنكرها أحد ولا يعلق عليها أحد . هم قطيع لك ذبحت منه نعجة ! لكن ، في عتمة الكوخ (السنزالا) كانت الثورة تبرعم على الدوام .

وتجمعت ذات يوم من سنة ١٨٣٥ كتل واسعة من هؤلاء المسلمين في منطقة باهيا وشكلت خطراً أقلق السادة وأقلق أكثر منهم رجال الكنيسة . شاهد عيان كان في البرازيل يومذاك كتب . أن الزنوج فيها كانوا أكثر تمرداً من غيرهم والسبب واضح . إنهم جميعاً تقريباً من ساحل الذهب وهم مسلمون وأكثر التصاقاً بالمغاربة.وكثير منهم يقرأ ويكتب كما كانوا أكثر الزنوج تنظيماً ...

وثار المسلمون تلك السنة . كانت الأجواء التي سبقت الثورة أجواء تطرف ديني عنيف في دروب مدينة باهيا وفي ظل الكنائس والأديرة كان الزنوج يصلون وينكرون المسيحية في حين كانت عيون السادة البيض تراقبهم من نوافذ البيوت الكبيرة للسادة البرتغاليين . وهم يسبحون بمسابيحهم الطويلة ...

وانفجرت الثورة لا تدري كيف انفجرت.ثم أخمدت لا تدري كيف أخمدت. ولكنها تركت على دروب باهيا آلاف الجثث السود وسنابك الخيل تدوسها والأشلاء منتثرة في الأزقة والدماء تلطخ الجدران . ورائحة البارود تعج في السماء مع التماع السيوف . بقسوة الوحوش الضارية كانت السكاكين تهوي في الجلود السوداء العزلاء... والتي كان بعضها ما يزال يحمل سلاسله الحديدية !

وانطفأ بذلك آخر قبس إسلامي في البرازيل ... حتى القرن الحالي .

حين عاد هذا القبس كان ذلك الماضي الذي ذكره فريري كله قد نسي !

من ذا الذي يذكره وكل من يخصهم الأمر قد زالوا من الوجود ؟

لسان الشاعر

قراء الأدب العربي قرأوا دون شك قصة بيتين من الشعر قيلا في القرن الهجري الأول ، رفع أحدهما قبيلة وهبط الثاني بقبيلة ... القصة مشهورة :

كان بنو أنف الناقة يعيرون بهذا الاسم حتى قال جرير :

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يسوي بأنف الناقة الذنبا ؟

فصار أحدهم ينسب نفسه لبني أنف الناقة ويمد عنقه . وكان بنو نمير من المدلين بانتسابهم حتى قال فيهم :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

فإذا أحدهم صار يمشي موارياً هذا النسب ...

وقد ذهبت القبيلتان ولست تدري ما سبب فخر نمير بنسبها وإن كنا نسمع الأقصوصة عن تسمية بني أنف الناقة بهذا الاسم وليس فيه ما يدعو إلى التعيير .

بعد ثلاثمائة سنة من ذلك جاء لسان شاعر آخر فشوه التاريخ تشويهاً وعلى الرغم من معرفتنا بالحق فإن قبلنا وما نزال نقبل شهادته على أنها الحق المبين ... ونلقي بالحقيقة التاريخية إلى الجحيم ... الشاعر تعرفونه والمشوهان تعرفونهما . إنهم الشاعر المتنبي وصاحباه سيف الدولة وكافور .

في هذا الثلاثي الذي عاش في أواسط القرن الرابع الهجري ، منذ ألف وخمسين سنة ونيف لعب لسان الشاعر دوره في رفع أحدهما إلى الأوج والهبوط

بالثاني حتى ليجرر في الرغام... ويضحك الثكلى منه! فالأول فارس الفرسان. يسير:

في جحفل ستر العيون غباره　　فكـــأنما يبصرن بالآذان!

وأما الثاني فمضحكة النساء:

فمثله يؤتى من بلاد بعيـــدة　　ليضحك ربات الخدور البواكيا

وإذا كان بعض الناس، في الآونة الحديثة، قد أنصف كافوراً أو حاول، فقلائل جداً عرفوا الوجه الآخر لسيف الدولة... ومع ذلك فما يزال الجميع يمجد سيف الدولة فوق ما يستحق من التمجيد. ويضحك من صورة كافور الكاريكاتورية ولو عرف عنه ما عرف من حقائق التاريخ المناقضة لصورة المتنبىء عنه...

والمتنبىء لسان. هو كلمة تدوي.

وتترك في الدنيا دويـــاً كأنما　　تداول سمع المرء أنمله العشر

كان ظاهرة عجيبة لا في الشعر ولكن في مدى تأثير الشعر خلال العصور. نحن نعتبره معاصراً ومنا، تماماً كما كان يعتبره أهل عصره قبل ألف سنة. ونستشهد بشعره كما كانوا يستشهدون.

نسي الناس أنه ابن سقاء في الكوفة يعرف بعبدان السقاء يسقيَ على بعير له. وكان يكتم نسبه. نسوا أنه تنبأ في بادية الشام وحاول الضحك على البداة بنبوءته الكاذبة.

نسوا أنه تجول ما بين حلب ومصر وفارس يلتمس مكاناً له في دنيا السياسة فلم يظفر بغير مكان المجتدي بشعره نخوة الأجداد... كل ذلك سامحه الناس فيه. نسوه. غرق في زحمة الأيام أو تساقط كقشور شجر الدلب الضخم وبقي من الشاعر مديحه الممجد كأنه أبنية الهياكل المرفوعة وحكمته

العميقة تحسبها حكمة ألف شيخ تلخص النفس الإنسانية، ولسانه ... لسانه الذي قُـدَّ من الجحيم!

وقد اقترن اسم المتنبي بسيف الدولة في عصره ثم اقترن اسم سيف الدولة به بعد ذلك.فهو الذي يجره معه في التاريخ ويرسم من حوله الأمجاد وما عرف أحدهما الآخر إلا مدى عشر سنوات فقط كانت كافية ليرتبط الاسمان ارتباط اسم الرشيد ببغداد. وسيف الدولة أبو الحسن علي بن حمدان زعيم قبلي استغل بعض الموجة البدوية الثانية التي خرجت من الجزيرة العربية فأخذ بها حلب كما أخذ أخوه من قبله الموصل واتسع نفوذه في شمال الشام كما في الثغور المتصلة بالروم فصار لعدة سنوات بطلها المقاتل. واستطاع كرمه وحبه للعلم والأدب ورغبته في مسايرة البلاطات الصغيرة الأخرى التي كثرت في عصره أن تجمع إليه بعضاً من كبار العلماء والشعراء والكتاب. فهم ذاهبون آيبون إلى قصره ولكنه لم يكن يفرغ لهم إلا لماماً فقد كان، مهدد الحدود على الدوام بجيرانه الروم من الشمال وبجيرانه بني الأخشيد من الجنوب.وزمرة العلم والشعر كانت نوعاً من الزينة يوشي بها فترات الهدنة بين حروبه.وكان من روادها ابن جني النحوي المشهور والفارابي الفيلسوف، وأبو الحصين الرقي القاضي وابن خالويه النحوي اللغوي وابن علان الحراني الفقيه وابن نباتة الخطيب ومسكويه اللغوي وظلوم المغنية و ... الشاعر المتنبي في كوكبة من المنافسين له كأبي فراس الحمداني والسري الرفاء والوأواء الدمشقي ...

هذا الثلاثي المكون من جهاد سيف الدولة ومن كرمه البدوي ومن هالة العلماء والأدباء في عصره أعطته مظاهر المجد كما أعطت شاعره المتنبي أن يطلق لسانه في امتداحه ما يشاء. غير أن سيف الدولة كان سيىء الحظ وسيىء السياسة في وقت معاً ولعل سوء سياسته إنما تحدر من سوء حظه.. فقد كان الروم في عهده في فترة تيقظ حربي جامحة وقد دفعوا بكل ثقلهم على الجبهة الإسلامية

فكان على الدويلة الحمدانية أن تحتمل كل الضغط العنيف الذي توقعه عليها حملات الروم. وعانى سيف الدولة طويلاً في مدافعتهم عن الحدود ولكنهم أزاحوه ثم دمروا جيوشه ثم دخلوا عليه حلب عاصمته وهدموا معالمها وأبنيتها التي شادها سيف الدولة... كانت نتيجة جهاده تلك الحفنات من الغبار التي جمعها في غزواته لتكون آجرة تحت رأسه بعد الوفاة! وثلاثي الجهاد والكرم وهالة العلماء هي التي أوصلته إلى سوء السياسة وحاجة سيف الدولة القاسية إلى المال ألجأته إلى الظلم وإلى الظلم الشديد. كانت رعيته تعاني الويلات منه. قاضيه هو الذي وضع قانون: كل من هلك فلسيف الدولة ما ملك. وبلغ من الظلم أن ألجأ بني حبيب وهم خمسون ألف فارس إلى أن ينتقلوا إلى جانب الروم ويغيروا دينهم ويحاربوا معهم... هذا ما رواه المؤرخون عن الرجل الذي بنى له لسان المتنبي تمثالاً من الذهب عبر التاريخ وسمعة تدوي على الدهر.

هذا اللسان نفسه تسلط على أبي المسك كافور الاخشيدي حاكم مصر وجنوبي الشام بعد أن انتقل إليه رجاه أن... ولكن الرجاء لم يفلح وألقى المتنبي بكافور في الجحيم! وما كان كافور بالحاكم السيىء ولا البخيل. كان من خيرة من عرفت مصر من الولاة. صحيح أن منظره لم يكن يسر الناظر، ولكنه كان يبذل جهده لينسى الناس منظره وماضيه في الرقيق. كان كثير الصدقات، كثير الاحترام لآل البيت وللعلماء، وتروى عنه القصص في هذه وتلك ويذكرون أنه كان إلى هذا رقيق الجانب سريع الدمعة كثير العدل ولولا هذه الشمائل فيه ما بقي يحكم مصر عشرين سنة على الرضا به والقبول. ولما استطاع أيضاً أن يوقف زحف الفاطميين عليه من المغرب ولا احتوى الهجوم الحمداني عليه من شمال الشام. ولقد جاءت عليه في أواخر عهده فترة سوداء تعرضت فيها بلاده لهجمات القرامطة والروم في الشرق، والنوبة في الجنوب، بالإضافة إلى الفاطميين من الغرب. وضربت الزلازل مصر وأتى حريق هائل على عاصمته الفسطاط وانخفض منسوب النيل فعم الغلاء ثم انتشرت المجاعة... ولكنه

تماسك وتجاوز هذه المحن المتوالية بصبر الصابرين وإدارة البارعين . ما شكا أحد منه إلا ذلك الشاعر المدل بشعره : المتنبي . كان كافور يعرف أن المتنبي يطلب ولاية ولم يكن على استعداد لمنحه هذه المنحة التي قد تخلق لكافور المشكلات ، فقامت قيامة الشاعر ... تصاعدت يوماً بعد يوم نقمته حتى انفجر يشتم . تناول كافور مظهراً وأخلاقاً وسياسة ... فجعله أبشع صورة كاريكاتورية لحاكم في التاريخ الإسلامي وأسوأ حاكم . صار كافور مهزلة التاريخ . وصار اسمه سبة !

وبعد أن كان الرجل :

أبا كل طيب لا أبا المسك وحده ... وكل سحاب لا أخص الغواديا

قواصد كافور توارك غيره ... ومن قصد البحر استقل السواقيا

صار عند المتنبي : ذلك الأسود المثقوب مشفره والخصي الآبق والكذاب .

جوعان يأكل من زادي ويطعمني ... حتى يقال جليل القدر مقصود

من علم الأسود المخصي مكرمة ... آباؤه البيض أم أجداده السود

أم أذنه في يد النخاس دامية ... أم قدره وهو بالفلسين مردود

وقال فيه :

وتعجبني رجلاك في النعل إنني ... رأيتك ذا نعل وإن كنت حافياً !

لهذا كانت النصيحة الأخيرة من المتنبي :

لا تشتر العبد إلا والعصا معه ... إن العبيد لأنجاس مناكيد

ما يقبض الموت نفساً من نفوسهم ... إلا وفي يده من نتنها عود !

العبد ليس لحر صالح بأخ ... لو أنه في ثياب الحر مولود !

لسان شاعر فقط هو الذي قلب التاريخ أو على الأقل غير في صوره . قلب الحقائق فنشرها معكوسة على هواه . ترى لو كان كافور يعرف ما كان سيفعله المتنبي به خلال العصور أكان يصر على حرمانه من أمنيته ؟

كذب الكتاب

حتى ما قبل قرن وبعض القرن كانت منابع نهر النيل ، في عرف الناس منابع معلقة كالجنان المعلقة أسراراً بين السماء والأرض . إشارة استفهام كبيرة يحوم حولها الكثيرون ولا يجرؤ أحد على اقتحامها . ثم كان وكشفت المنابع فمن هم المكتشفون الذين حملوا أكاليل الغار في هذه المغامرة؟ السجل ممتلىء بالأسماء وكلها ذات صيغة أعجمية وأوجه شقراء غريبة ـــ لو تفرست جيداً وراءها لتراءت لك وجوه أخرى كالأطياف ولكنها سمراء منكورة هي التي قادت أقدام هذه الزمرة الأجنبية إلى المكتشفات العظمى ... لكن لم يذكرها أحد ! حتى في كتبنا المدرسية نحن ندرس أولادنا الأسماء الأجنبية كما لو كنا نفخر بها ونلغي الأسماء الأخرى ... لا وجود لها حتى في التخيل . نسقيهم أن المكتشفين في أفريقيا ـــ كما في أمريكا وآسيا ، هم الشعور الشقر والعيون الزرق . أما العيون السوداء والوجوه السمراء أو الزنجية أو الصفراء . وأما الجلود التي تلقت سكاكين الشوك وشفرات الأغصان وسالت عرقاً ودماً على الدروب الغابية ، أما الذين قادوا ودلوا وهدوا ... فلا طيف لهم ولا ذكر .

في أواخر الستينيات صدر كتاب في ٤٠٠ صفحة كتبه الكاتب الإنكليزي آلان مورهيد يحكي مغامرة كشف منابع النيل ! صاحب الكتاب فتح به نهر الذهب على خزانته فقد ظل أكثر الكتب مبيعاً ورواجاً سنتين طبع خلالهما وترجم ثم طبع وترجم مرات إلى مختلف اللغات . والكتاب ملحمة لمغامرات المستعمرين الإنكليز في الاستعمار ، وفي مد سلطات الاستعمار في

شرقي أفريقيا . وما العنوان منابع النيل سوى حجة علمية وقحة لعملية استغلال استعماري ماعرفت مثلها البشرية من قبل إلا على أيدي هؤلاء الغربيين وفي كل مكان ! ولا كلمة فيه عن أحد من أولئك الذين صنعوا ذلك المجد فعلاً ، عن العرب الذي صاغوا مجد ذلك الأوروبي .

براعة « المكتشف » الغربي في استغلال المعلومات التي يعرفها الوطنيون السذج الخائفون من بندقيته ومدفعه هي السدى واللحمة في نجاحه وبقاء اسمه في التاريخ.في حين ألغي كل أولئك الآخرين ! وأبطال المغامرات ألوان ولكنهم يلتقون جميعاً حول نقطة واحدة هي مد ظل العلم الإنكليزي أكثر فأكثر في الأرض ، وتوسيع الامبراطورية في ذلك العهد الفكتوري الأسود ! إنهم مبشرون يختفون وراء الصليب ومغامرون أغنياء يسعون للمجد الشخصي في المغامرة وعملاء شركات احتكارية تفتش عن المواد الأولية ، وضباط مهووسون بالنصر الرخيص . ينفذون به في مقاوميهم كما تنفذ السكين في الزبدة ... ويجمعهم هاجس واحد ، لافتة واحدة : مجد الامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس والتي غابت كلها الآن عن الشمس ، ولكن بعد أن سحقت مئات الألوف من الأجساد التي حملتها إلى المجد !

الذين طرقوا شرقي أفريقيا من المغامرين ، جميعهم بدأوا الطرق من زنجبار ، الجزيرة الصغيرة على الساحل الأفريقي الشرقي . وكانت هذه الجزيرة لسلطان مسقط وعمان من آل البوسعيد . وقد أخذ الإنكليز فيما بعد أسطوله كله أجرة للفصل بين ولديه المتنازعين وبقيت زنجبار لأحدهما . سكان المنطقة من العرب والزنوج البانتو كانوا يعرفونها بالشبر . يعرفونها أدغالاً سوداء وأنهاراً تهوي كالسهام الفضية وبحيرات آسنة الشواطىء وصخوراً تكللها الثلوج حول الجبل الأعظم : كليمنجارو ... ويركض في سفوحها الموت.الأوروبي ، الغريب

الأشقر الأزرق العينين هو الذي كان لا يعرفها ولكنه يلتظي جشعاً لاستغلالها . وما دامت المدافع والأساطيل على الساحل كفيلة بإرهاب البنادق العتيقة التي يتزين بها جند الأمراء المحليين فأي مغامر يمكن أن يخشى الإيغال في القارة وتسيير مئات الرجال في موكب حوله ؟

هكذا توغل اثنان من الإنكليز : أحدهما ريتشارد بُرتون المغامر القلق العربيد. وكانوا يزعمون أن يعرف تسعاً وعشرين لغة. وقد جعلها ثلاثين بتكلم لغة القرود . حسنةُ هذا الرجل الوحيدة أنه عرف للعرب مكانهم واعترف بما قدموه له من خدمات في مغامرته بعد أن كان ترجم ألف ليلة وليلة إلى الإنكليزية وحج إلى الكعبة زاعماً أنه مسلم .

أما رفيقه في المغامرة فكان جون سبيكس الذي أرسلته الجمعية الجغرافية البريطانية والله يعلم فيم أرسلته؟ القافلة الطويلة المكونة من ١٢٠ رجلاً من العرب والزنج يتقدمها حامل علم السلطان وينوء وفي آخرها الحمالون بأحمالهم ، وفيما بين هؤلاء وهؤلاء الأدلاء وحملة البنادق وسائقو عربات الثيران والبغال كلها لا قيمة لها ولا دور . القيمة والدور كانا للمكتشفين العظيمين اللذين كانا يحملان في محفة تارة وعلى الحمير تارة أخرى في ذيل القافلة ! خشية على عيونهما الزرقاء ! إنهما كل القافلة تطرد عنها الذباب والحشرات « منشات » المرافقين. فالحشرات وحدها هناك هي الخطر المميت. أما الإنسان والحيوان فكانا على مثل سلام الغابة وخدرها الطويل .

اجتازت القافلة ببلدة فازة التي تعج بالتجار العرب ثم ببلدة أوغيغي على الشاطىء الشرقي لبحيرة تنغانيكا واقتنع برتون أنه وصل بها إلى منابع النيل. في حين همس العرب في أذن سبيكس أن ثم بحيرة أوسع وأشد رهبة في الداخل إلى الشمال . فانتهز فرصة من زميله ... وسار وحده إليها ... طبعاً بالأدلاء والمظاهر نفسها .

حين أشرف على البحيرة من بعد بهت للمنظر الرائع. كان جلال الماء كأنه البحر الأوسع ينتهي وراء الأفق. مساحة هذا المسطح المائي تبلغ ٢٧ ألف كم٢ (أي ثلاث مرات تقريباً من مساحة لبنان). وحين وصل ضفاف البحيرة أدرك من خلال الأدغال والحشرات والنباتات المائية أنه في بقعة من الأرض البدائية الأولى. وحين حملته المجاديف على الضفاف خفق قلبه. لقد وقع على منابع النيل! كانت البحيرة عند السكان المجاورين لها باسم مجهول فأسبغ عليها اسم ملكته فكتوريا.

لكنه عاد ليصطدم بزميله برتون الذي جمع بدوره كثيراً من المعلومات عن البحيرة الكبرى. واختصم «المكتشفان العظيمان» ثم تسابقا في العودة إلى إنكلترا بعد أن اتفقا على إذاعة الخبر مجتمعين. ولكن سبيكس الذي وصل قبل زميله باثني عشر يوماً إلى لندن أذاع السر بالبنط العريض. وصدرت الصحف تطنطن باسم كاشف سر النيل: سبيك.

وأنكر بيرتون، حين وصل، قول زميله بدعوى أنه يردد ما قاله عرب المنطقة عن منابع النيل. وانتهت علاقة الاثنين إلى العداء الشديد...

وقد عاد سبيكس مرة أخرى إلى المنطقة لحساب الجمعية الجغرافية الملكية مع زميل جديد يدعى غرانت للتحقق من السر. وكشف ظاهره المهذب عن فاسق فاجر لا يتورع عن العبث بالزنجيات حتى بحريم الملك السمينات! وضاع الاثنان مرات في ظلام الغابات الاستوائية، والتقطهما العرب والزنوج. وفي المرة الأخيرة لقيهما الجنود المصريون القادمون للبحث عنهما بأمر من الخديوي اسماعيل صاحب مصر.

وتقرر أن تقام مناظرة بين سبيكس وصاحبه القديم برتون سنة ١٨٦٣ حول الموضوع ولكن سبيكس انتحر قبل ساعات فقط من المناظرة. هل هي رصاصة طائشة؟ أم جريمة قتل؟ أم انتحار حقيقي؟ ما من أحد يعلم!

وأخيراً وجدت الجمعية الجغرافية مَنْ يحقق كشف منابع النيل ويرسم

الخرائط لها في شخص رجل اسمه صموئيل بيكر . لكن بيكر الذي كان يطوف الأرض كلها وبندقيته على كتفه والذي دفعت مصر كل تكاليف رحلته أنفق وقته في إبادة كل من يراه من العرب في طريقه وفي إبادة جماعته التي تخرق السدود العشبية على النهر. وفي هدم المساجد البسيطة التي في القرى وفي قتل الأمراء المحليين . كانت آخر أعماله إحراق بلدة ماسندي في أقصى جنوب السودان وارتفعت فيها ألسنة اللهيب ضارعة إلى السماء — كما قال هو نفسه ولم يبق منها بيت . صارت أكواماً من رماد أسود !

وجاء من بعده ليفينغستون فضاع في الأدغال هو الآخر سنتين حتى هدى إليه عربي يدعى سليم. فإذا هو في بلدة أوغيغي يعيش آمناً مطمئناً وسط جماعة من العرب . ومع ذلك فقد كان ما كتبه عن العرب والإسلام أوجع ما كتب كاتب وأكثره ظلماً وحقداً .

هل جنينا من الآخرين أحسن من هذا ؟ أبداً . كلهم بعد برتون عظموا أنفسهم . وأشادوا باكتشافاتهم . جعلوا مغامراتهم مركز الكون . لم يجودوا على العرب ولا الزنوج الذين ماتوا ثم ماتوا في معونتهم بكلمة طيبة واحدة !

مع ذلك لو سألت عالماً عربياً اليوم عمن كشف سر النيل لذكر هؤلاء الأعاجم الضائعين وحدهم لأنه يجهل الكاشفين الحقيقيين لهذا السر من أهله .

أرأيت كيف يكذب الكتاب ؟

الأرض الطيبة

الصين عالم كامل . قائم وحده عاشت الزمن الأطول في عزلة عن باقي الدنيا ، فلم تحتج لشيء من الدنيا بل كانت تسمي نفسها المملكة الزاهرة ومملكة السماء وهي مجموعة من المتناقضات . فيها الصحراء المميتة ، والسهول كما لو سكبت على الأرض الزمرد.وفيها الماء الغزير حتى لكان يجرف في عنفوانه مليون ساكنٍ على الضفتين.وفيها الجفاف الذي يشقق الأرض دروباً عميقة والهضاب تحسبها سقف العالم في التيبت.والوديان يضيع فيها الصدى ومثل هذا التنوع تجده في السكان وفي الطباع وفي المناخ وفي مستوى الذكاء ومستوى المعيشة . والصيني ، الذي بلغ تعداد قومه اليوم ألفاً ومائتي مليون ، غامض . ذكي . لغز وقد يبدو في غاية السذاجة وبطء الفهم . فمن لطائفهم أن سونغ دفن في جداره ثلاثين ريالاً من الفضة وعلق على الجدار ورقة كتب عليها : سونغ لم يخبىء دراهمه هنا . وجاء شانغ فأخذ الدراهم لكنه علق مكان الورقة الأولى ورقة كتب عليها : شانغ لم يأخذ دراهم سونغ ! على أن الصيني في الواقع ذو فكر وقاد متألق . أكثر مما هو عميق دقيق والإلهام لديه أقوى من المنطق والخيال الحي أقوى من الحقيقة . . .

شيء واحد لم يتغير في الصين حتى أواسط هذا القرن هو ذلك التفاوت العظيم بين الجياع والمتخمين . عشرات ألوف الرؤوس علقت على أسوار المدن ، في التاريخ كانت جريرتها هناك أن أصحابها جاعوا فثاروا . وقبل الميلاد بثلاثة

قرون نظم الإمبراطور (وان) أغنية ينتهي كل مقطع منها بشدو حزين لا ترجمة له ولعله اسم نديم من الندماء :

العالم الذي نعيش فيه هو نفسه :

فلمـــــاذا هذا التفـــــاوت   تشانـغ ليـوتيـان ؟
الأغنياء يأكلون الرز الجيد واللحم   تشانـغ ليـوتيـان
والفقراء يأكلون النفايات والنخالة   تشانـغ ليـوتيـان ..

ولكن هذا الامبراطور الذي وضع المسألة مسألة البشر القديمة لم يجد لها جواباً فختم نشيده بقوله :

مصيرنا بيـد السـمـاء القاسيـة   تشانـغ ليـوتيـان !

وإذا عرفت أن قائمة العشاء اليومية للامبراطورة تسوهي في مطلع هذا القرن تحوي خمسين لوناً من ألوان الرز وحده فضلاً عن غيره من الألوان ، وكانت تكاليف كل وجبة طعام امبراطورية لها تكلف ما يكفي لإطعام عدة آلاف من الفلاحين يوماً كاملاً وأن ثمن أثوابها يكفي لإطعام ٥٠ ألف فلاح يوماً كاملاً وأن ما أنفق في عيد ميلادها من الفضة يكفي لإعالة ٧٠٠ ألف فلاح عاماً بأسره ... إذا عرفت لم تستغرب أن تكون مشكلة الجوع والأرض والأفواه المتزايدة كابوس الصين المقيم : يقولون إن الصيني يأكل كل شيء في السماء عدا الطائرات وكل شيء في الماء عدا السفن وكل شيء في الأرض عدا الإنسان ...

ومن الغريب ألا يكتب هذه المآسي القديمة قلم صيني . حتى عهد قريب كانوا يعتبرون ذلك قدراً إلهياً لا مفر منه . وجاءت كاتبة أمريكية فأصدرت سنة ١٩٣٠ رواية ثلاثية تحكـى قصة الشد والجذب مع هذا الكابوس ...

هذه الكاتبة التي أضحت مشهورة جداً بعد ثلاثيتها هذه هي بيرل باك التي ماتت منذ عهد قريب، لا يزيد على ٢١ سنة. بعد أن عمرت ٨١ سنة. لم تولد في الصين ولكن أباها ذهب بها وبإخوتها الخمس إليها وهي ما تزال في السادسة من العمر. وطالت بها السنون هناك فقضت معظم حياتها في ذلك البلد الغريب. لم تخدعها المدن بقصورها العريقة والحدائق الواسعة، ولا البحيرات تغطيها زهور النيلوفر، ولا الجسور من المرمر ولا الأقواس الضخمة ألوانها كقوس قزح، ولا البوابة الجبارة التي تقف على عتبة المنطقة المحرمة القديمة، قدس أقداس الامبراطورية السماوية، حيث تسقط العصور الزائلة في هوة الزمان ... لم تخدعها حتى تهاويل الأفعوانات الهائلة مرسومة أو ممثلة بكل مكان وكل عيد وكل نقش. اتجهت بيرل باك إلى البر الأوسع في الصين وإلى الفلاح الصيني الغائص الأرجل في الوحول والمحني فوقها ... من هنا بدأت الكتابة عن الصين ألم تختر الصانع الحقيقي للصين؟

الجزء الأول من ثلاثية بيرل باك يتناول حياة الفلاح وانغ لونغ. والرجل فلاح عادي في مقاطعة آن هوي المتاخمة لمدينة شانغهاي. حقول الأرز هناك تجف تارة مع الجفاف حتى تصبح في صلابة الآجر.ثم تهطل الأمطار فيه فجأة ليتلف فيها محصول القمح أيضاً. وكانت أهراء الملاكين العقاريين لا تكاد تفرغ أبداً، يصنعون من أرزهم خمراً ويعطون النفاية للفلاحين يأكلونها ... وتتوالى على هذه الوتيرة السنوات العجاف والسنوات السمان. وتسرف بيرل باك فتصف في واقعية تشبه الرسم عادات الفلاحين وعقائدهم الشائعة، وموقفهم من البؤس والجوع ... ومن ويلات الحروب الداخلية التي سبقت ثورة ماوتسي تونغ الأخيرة سنة ١٩٤٧.

كان وانغ لونغ صلباً تقياً يحترم النظام الذي وضعته سماء وأرض جعلتاه أكثر يساراً من غيره. وكان لدى عودته من الحقل يدخن غليونه، جالساً على

مقعد صغير بين قصريات مزروعة، وتحت شرائط صغيرة من الورق الأحمر رَسَمَ عليها كاتب القرية تمنيات للعام الجديد، مع صورة الأباطرة كونغ أرباب المطبخ. أما في الباحة فكانت النسوة يجرشن الحبوب ويطحنَّ القمح والشعير والدُخن في انتظار أن ينضج الأرز الجديد على النار. وغاصت الكاتبة بيرل باك من خلال شخصية بطلها في أعماق الإنسان الصيني تصور في بيان بارع بسيط تمسّكه بالأرض لأن تربتها حصيلة لدم الشعب وعرقه. الأرض هي الذهب الوحيد في الصين لأنها الإنقاذ من الجوع.

وكان وانغ لونغ يأسى لويلات الحروب التي تزرع الدمار والخرائب والأشلاء بكل مكان. ويأسف لجرأة الثوار. وللجنون الذي أخذ الناس في هذا الزمان الجديد، ففي الشمال كان القتال على أشده مع اليابانيين وهزمت الصين. وحَلُم الامبراطور بالإصلاحات لكن الامبراطورة تسوهي العجوز ما لبثت أن حجرت على ابن أخيها الامبراطور في قصره. وعادت الأسر الرجعية إلى الحكم، وإلى تحويل غضب الشعب إلى كره للأجنبي. وسادت حكمة كونفوشيوس القديمة «أيها الأمير كن أميراً ويا عبد كن عبداً ويا أب أنت أب ويا ولد أنت ولد ...» لكل إنسان وظيفة وقَدَرٌ لا يجب أن يتحداه. إنه يعلّم الفقراء أن يتحملوا بصبر آلام الجوع وجشع الملاكين. ومع أن صن يات صن الرئيس المحبوب نجح في القضاء على النظام الامبراطوري فإن تكتيك إخراج الكستناء من النار بأيدي الآخرين — كما يقول الفرنسيون — كان قد بلغ أعلى درجات الكمال لدى ساسة المدرسة الصينية القديمة، واستطاع أحدهم يوان شي كاي وزير الامبراطورة أن ينتقل، حين زلزلت الأرض تحت قدميه، إلى صفوف الثوار ويصل إلى رئاسة الجمهورية... وأمضى صن يات صن خمس سنوات في الصراع ضد الغاصب يوان شي كاي دكتاتور الجمهورية الصينية الناشئة ولعل هذا الغاصب كان يحلم بأن يكون الأول في أسرة امبراطورية جديدة...

في هذه الفترة من الفوضى توصل وانغ لونغ، من خلال الأحداث السياسية والعسكرية إلى الغنى. وإلى امتلاك مساحات كبيرة من الحقول والبساتين. ولا تقف الكاتبة طويلاً عند ارتقاء فلاح عادي إلى مستوى اجتماعي رفيع. بل تتابع الفلاح وقد تقدمت به العمر وأتته الثروة لتخبرنا بأنه أغرم بالفتاة (زهرة الإجاص). ولم يكن الرجل ليرى في ذلك أي أمر غريب. ولكن أولاده ثاروا عليه. وعمدت بيرل باك إلى هذه الخصومة بين الجيلين لتفيض في وصف الحالة المسيطرة في البلاد آنذاك. عبرت عن اصطدام التيارات الجديدة مع القديمة في حوار بين العجوز وأبنائه. قالوا له في إحدى المناسبات: إن الحالة سوف تتبدل يوماً، وذلك حين يصبح الأغنياء أكثر غنى والفقراء أكثر فقراً... لم يستمع لهم بالطبع. لكن الرواية في جزئها الثاني الذي جاء من بعد بعنوان الأبناء أبرزت شخصيات هؤلاء الأولاد الثلاثة في أضواء جديدة. فقد قاموا بعد وفاة العجوز باقتسام الأرض. وتفوق أصغرهم الملقب بالنمر على أخويه وحصل على مال وفير مقابل أملاكه. وأنشأ جيشاً قاده في الثورة الأهلية من نصر إلى نصر. وبلغ أوج السعادة حين شب ابنه يوان وبدأ يدربه على خوض المعارك.

غير أن الفتى لم يكن يميل إلى كسب الأمجاد بالقتل وسفك الدماء وكان يميل إلى أحلام الإصلاح الاجتماعي والسياسي، ونشأ عن تمسك كل من الأب والابن بفكريهما اصطدام ما انفك يعنف ويشتد حتى بلغ أوجه الحدة في رواية بيرل باك الثالثة التي جعلت عنوانها الأسرة المبعثرة.وفيها يتحرر يو وان من سيطرة أبيه وقيود التقاليد وينضم إلى جماعة ثورية سرية لتحرير الشعب البائس فيقبض عليه ولا ينجو من الإعدام إلا بعد أن افتدته الأسرة بمبالغ كبيرة من المال. وما أن أطلق سراحه حتى غادر الصين إلى الغرب لإتمام ثقافته. وهناك نشأت علاقة حب بينه وبين طالبة صينية حسناء اسمها ماي لينغ في حين كان أبوه النمر سيد الحرب، يقع في أيدي الفلاحين الثائرين ويقتل...

قطاع كامل من تاريخ الصين الحديثة روته الكاتبة في ثلاثيتها لا ينقصه صراع الأجيال ولا تنوع مصائر الآباء والأبناء ولا تباين الأفكار وتعقدها ولا البحران المضطرب لعصر من أعنف عصور الصين تقلباً واضطراباً . . .

إنها رواية . بلى ! وكانت تستطيع أن تستغني بها عن آلاف الصفحات من تاريخ الصين ولكن . . . قبل ماوتسه تونغ والنهضة الأخيرة !

دروب الجوع

ليس أصدق من هذا العنوان في وصف حديث اليوم. لكنه عنوان مستعار من قلب رواية تجتذب الأنظار بعنفها وقسوتها ولو أنها شديدة الصدق والواقعية لدرجة مرعبة. صاحب الرواية قصد أن تعنف وأن تُـرعب، كان يريد أن يهز ضمير الطبقة العليا من مجتمعه. وابتلع الناس طرافة القصة وعنفها وروعتها لكن بقي الظلم القديم يمد جذوره في الأرض! كما كان. وظل الجرح الذي كشف الكاتب عنه ينزف وينزف.

صاحب الرواية، جورج آمادو، هو أشهر أديب برازيلي معاصر اسمه العالمي يجعل كل كتاب يصدر عنه يترجم خلال أشهر إلى لغات شتى. مضى عليه في معاناة الرواية نيف وستون ورغم سنيه التي تجاوزت الثانية والثمانين ما يزال ينتج. وما يزال التقدير العالمي ينهال عليه. وقبل أن يتجاوز حد السمعة العالمية، ويتجاوز هو نفسه حد التطرف اليساري، الشديد كان يعيش تارة في السجن وتارة في المنفى وثالثة في السفر الطويل. وتزوج وطلق وصار نائباً في بلاده. ونال جائزة ستالين ورشح لجائزة نوبل... لولا يساريته!

ويجب أن نعرف أولاً أنه ليس ثم برازيل واحدة ولكن برازيلات عديدة. لكل مقاطعة في هذه القارة البعيدة. خصائصها وسكانها وإنتاجها المختلف وآمادو من مقاطعة على ساحل المحيط الأطلسي اسمها باهيا. معظم سكانها من الزنوج. وروايته التي نعرض لها اليوم تروي قصة مقاطعة أخرى في شمال باهيا لها تاريخ طويل في الهجرة نحو الجنوب اسمها السرتون... هي الجوع المتصل والمناقض لكل ما عرف عن البرازيل من خيرات ومن ثروة وإنتاج...

وباهيا كانت في الماضي عاصمة البرازيل ، ولما كانت مرفأ يقابل منطقة جلب العبيد من أفريقيا فقد تكاثر فيها الزنوج جداً . فهي البلد الزنجي في البرازيل . وكانوا في معظمهم مسلمين ذات يوم ، وقد تركوا على أسقف الكنائس التي بنوها لأسيادهم مرغمين كتابات عربية وقرآنية للذكرى . وفي البلد أكثر من ٣٠٠ كنيسة فهي بلد الكنائس الذهبية ، وباهيا ليس اسمها ولكنها مشهورة به كبعض الفنانين ، واسمها الأصلي بلد جميع القديسين أو سان سلفادور بلد المخلص . ومنطقتها أكبر في المساحة من فرنسا . جنوبها لزراعة الكاكاو وشمالها للقفار الجائعة ، ونباتها البشري للنزيف على سيارات الشحن إلى الجنوب حيث تقوم مدينتا الريو دي جانيرو وسان باولو ! كل البرازيل تلتمس العمل في سان باولو وفي الريو !

أما منطقة السرتون في شمال باهيا فهي الصحراء بكل جبروتها وقسوتها ... وجهنم الأشواك فيها ، وسرب الأفاعي والجراذين الضخمة وتنتثر المزارع في بعض أنحائها كالواحات الواسعة فتقتل الرتابة . ولكنها ملك الكولونيلات . والكولونيل هناك ، ولو أنه لقب عسكري ، إلا أنه يمنح لمالكي المزارع ، منذ القديم ، فكل إقطاعي كولونيل ... قصة أمادو (أرض بلا نهاية) تبدأ هناك في إحدى تلك المزارع . كان الفلاحون يومهافي عيد . واحد منهم كان سيزوج ابنته في ذلك المساء فهو حدث عظيم والجميع يستعدون له بلهفة .

إن فيه أكل اللحم وشرب (الكاشاصا) الكحولية ورقص البولكا وسماع الأكورديون .والأب معروف بأنه متلاف كريم . وحين قالوا إن وكيل المزرعة والمتجر الموجود فيها سوف يحضر الحفل كان ذلك حدثاً آخر وتشريفاً غريباً منه ، وسرت الشائعة بذلك من بيت لبيت . أما صاحب المزرعة فبعيد لم يأتها منذ سنوات . إنه يعيش في الريو ويرسل إليه الوكيل ريعها سنة بعد سنة . في حين يعتصر الفلاحين عصراً سواء في المتجر أو عند حسابهم على المحصول .

هٰذا كان البؤس يعشش في جميع الأسر كظلمة الليل ...

من هذه الأسر أسرة الفلاح جيرونيمو العجوز . وكانت فيها ابنته الفتاة مرتا وأختها زيفا الشابة الموسوسة بعقلها والتي تنادي كل مساء بانتهاء العالم ، والجدة العجوز جوكونديناا التي ذهب أولادها الثلاثة ولم يعودوا منذ زمن طويل وبقي لها واحد هو أوغستينو . ويقال إن أحدهم أضحى قاطع طريق . وهناك أحفادها اليافع تونيو ذو الثلاثة عشر عاماً وأخته الصغيرة نوكا وارنستو وهم أحفاد جيرونيمو وقد ماتت أمهم ، وثم أسرة أخيه جو بدرو ... عدا القطة ماريسكا والحمار جرمياس .

في المساء كان المزارعون على الطريق إلى بيت العرس ، لم يتخلف منهم إلا واحد هو غريغوريو الزنجي الذي كان لا يأبه إلا للعمل لعله يجمع ثمن قطعة أرض . وفيما كان وكيل المزرعة يتأهب بدوره للمسير ويحلم بالأسهم النارية التي سوف تطلق ساعة وصوله ، وصله من صاحب المزرعة بريد في مغلف ضخم . وفضه فإذا هو من صاحب المزرعة . وإذا فيه أنه باعها وأن على الوكيل أن يحاسب المزارعين ويصرفهم ويسلم المزرعة خالية إلى المالك الجديد ! حين استقبلته الأسهم النارية والأنغام في الحفل والراقصون لم يعرف كيف يقول للمزارعين الخبر ... ولكنه في النتيجة أذاعه ... وتلقى وهو عائد إلى البيت عياراً نارياً جرحه ... وقيل إن الزنجي غريغوريو الذي اختفى بعد ذلك هو صاحب الطلقة ...

بعد أيام معدودة بدأ رحيل المزارعين متفرقين . من هذه الأسر أسرة جيرونيمو وأخيه . اختارت المسير نحو الجنوب إلى سان باولو البعيدة جداً ... ولكن الجميع يتحدثون عن الغنى السهل الممكن فيها . كانت الحلم الوردي . ولكن دون الوصول إليها عبور الكاتنغا الصحراوية قرابة شهر ثم ركوب المركب في النهر أياماً ثم السفر بالقطار يومين ... أما مجموع الأسرتين فكان ١١ شخصاً وحمار وقطة .

والكاتنغا صحراء وحشية من الشوك، وشمس محرقة استوائية، وأفاع سامة متنوعة. ليس فيها ثمرة ذات عصير. وليس فيها أي طريق، ولو بدائية، أرجل الفلاحين المطرودين من أعمالهم ودورهم، خططت دروباً خلال الأشواك تظهر تارة وتختفي أخرى. في هذه الدروب انخرطت أسرة جيرونيمو أحد عشر فرداً والحمار جرمياس الذي يحمل حاجاتهم في سلتين والقطة التي دافعوا الابنة نوكا طويلاً في تركها فرفضت وجاءت بها...

جميع السالكين عبر هذه الأشواك الصحراوية كانوا متجهين إلى الجنوب منذ زمن طويل جداً، كان ذلك وما يزال الزحف مستمراً. الجوع كان يسوقهم نحو الجنة الموعودة سان باولو في آخر الدرب الطويلة. بعد يوم العذاب الأول وصلوا مزرعة فطردهم رجالها. صاحبها يخشى الحريق ودلهم إلى مزرعة أخرى. وانغرست شوكة في قدم نوكا الصغيرة فأخذت تعرج. كما أخذت زيغا وهي الآن موسوسة تردد صراخا بنهاية العالم. في اليوم التالي تهربوا من أسرة أرادت مرافقتهم، لأنها قد نفدت مؤونتها، بعد أن قضت شهرين حتى الآن على الطريق وقد سمعوا منها خبر قديس يطوف بالمنطقة ومعه جموعه يبشر بنهاية العالم. كما سمعوا أخبار قطاع الطريق...

بعد خمسة أيام وجدوا أنفسهم يبحثون في الكاتنغا بين الشوك عن الطريق ونوكا يزداد عرجها شدة وألماً وزيغا تزداد هوساً، والصغير الرضيع يهزل وتبرز عظامه... ثم أخذت الحمى ترهق الصغيرة نوكا. فحملوها على الحمار. وبدأ أوغستينو يلاحظ جمال ابنة عمه غروتريد. وصارت زيغا تردد حين رأت الصغيرة: ستموت. ستموت! والتقوا بجماعة معها بعض المشعوذين. وصفوا للصغيرة المحمومة بعض الوصفات، ولكنها في النهاية ماتت! وافتقدوا زيغا ذات صباح فلم يجدوها... لقد لحقت بالقديس الذي يبشر بنهاية العالم. والركب الصغير يتابع سيره. ومضى الشهر ونفدت المؤونة ولم يظهر لهذه الأرض نهاية

فأكلوا من بعض الصيد . وأكلوا أفعى وقعوا عليها كما أكلوا القطة . وكانوا يأملون ببيع الحمار حين يصلون.ولكنه أكل بعض العشب السام فنفق . وسرقوا من المزارع التي يمرون بها ، في حين كانت علاقة أوغستينو بابنة عمه جروتريد تزداد . وشيئاً فشيئاً صار لهؤلاء المهاجرين صورة أشباح الكوابيس ، بشعورهم الطويلة تسرح فيها الحشرات ، وثيابهم الممزقة ومزاجهم الغاضب .

وفاتح أوغستينو أمه بالزواج فوعدته أن يتم حين يصلون إلى المدينة ويجدون أي كاهن في حين قرر أوغستينو أن يتركهم في أول مزرعة يصلونها ويأخذ معهة زوجته . وأصابت الحمى ابنة العم دينا . أصابتها البرداء ثم ماتت فدفنوها تحت قليل من التراب ، ورأوا وهم منصرفون تحويم الغربان حولها . وإذا كانوا لم يموتوا عطشاً فلأنهم كانوا إذا وصلوا بعض المزارع تدبروا بعضه . وتوانت حركتهم جداً من الإرهاق ، والأرض لم تنته ... ويوم وصلوا إلى منطقة فيها الزرع والماء عرفوا أنهم ضلوا الطريق وعليهم أن يمشوا حوالي خمسين كيلو متراً لتنتهي المرحلة الأولى بالوصول إلى دولة باهيا ...

واشتغلوا في المزرعة ليجدوا ما يأكلون ويختزنون.ثم اتجهوا بعد فترة إلى المدينة ... ونزلوا في المخيمات التي يتجمع فيها المهاجرون مثلهم . وطافوا على وكالات الملاحة لشراء التذاكر وسمعوا القصص عمن أخفق ومن مات من مختلف المهاجرين. وكان جيرونيمو قد شعر بوخزة في صدره وسعال جاف فأدخلوه المستشفى وظهر أنه مسلول !

في انتظار وصول المركب كانوا يقفون على حاجز النهر العريض يتأملون الماء كغيرهم ويحلمون . وحين يعودون إلى المعسكر يجدون الكثير من العائدين الذين يؤكدون أن أحلامهم في الهواء.ولكنهم يقولون بينهم وبين أنفسهم إن هؤلاء أولاد لا يعرفون العمل الجدي . وقبل أن يسافروا بالمركب عرفوا أن « قديسة » ظهرت بجانب القديس الشارد في المنطقة وأنها بدورها تبشر بنهاية العالم ...

وأخيراً وصل المركب.وتكوم ركاب الدرجة الثالثة فيه.ولما كان الأكل على حساب أصحابه فقد أكل الجميع بنهم في الفترة الأولى مما أورثهم مرض الإسهال . وتصاعدت الروائح النتنة من الناس . وهلك الصغير أرنستو فيمن هلك من الصغار وألقي في النهر ... وصل عدد الباقين من الأسرة خمسة فقط . إن دروب الجوع تقود إلى المقبرة .

حين وصلوا حدود دولة سان باولو فوجئوا بأن عليهم زيارة المركز الصحي لإثبات خلوهم من الأمراض . عشرات الألوف في مدينة الحدود ينتظرون . وكانت علة جيرونيمو تزيد ... ولكن طبيب الصحة تدبر له الأذن بعد أن كانت مرتا قد أضحت بسببه بغياً ...

هذه القطعة من تاريخ البرازيل لم يكتبها أحد وكتبها آمادو . ولقد عاناها بعض أهلنا من المغتربين العرب هناك ، عانوها حتى الموت . والمؤرخون والكتاب لايذكرون إلا برازيل الخير والمدن الكبرى ...

أما برازيل الأرض الجهنمية فمقذوفة إلى عتمة النسيان !

ألف ليلة وليلة

ألف ليلة وليلة هي ، في الأدب العربي ، نغم ينساب انسياب النسيم بين الشجر تحييه ولا تراه . إنها الخبىء والأعماق لكل أعراس العصرين العباسي والمملوكي ولكل مآسيهما في وقت معاً هي حكاية متصلة تمتد في الزمن من القرن الثاني الهجري حتى الثامن على الأقل لتؤرخ الجانب الخفي من عواطف الناس ومن آمال الناس . الكتلة الإسلامية الصامتة في التاريخ أودعت فيها ، في عمل جماعي مشترك صورها . الذين كتبوها حالاً على حال وصفحة بعد صفحة ــ وما أكثرهم ــ أودعوا فيها أحلامهم التي ترف على الأجنحة وحكايا البؤس المرير الذي يعيشون ، وألوان السعادة التي يرجون على السواء . لخصوا ــ وهم لا يدرون ــ آلام الكتلة المعذبة من الناس وجناتها . نشروا أو طووا على أسطرها الأصداء الخرساء لحياتهم التي يحيون عبثاً في عبث . المارد المسحور في القمقم ، السندباد الذي يجري على الموج . دليلة المحتالة . الشاطر حسن . ليست أخيلة فقط ولكنها تماثل في الخلود ــ ولعلها تزيد ــ على الشخصيات التاريخية الحقيقية . إنها أناس صنعتهم أخيلة كان أقصى همها إقامة التوازن بين الواقع الأسود والأماني المترائية وراء الغيم ، وراء الماوراء .

حتى العمود الذي تقوم عليه ألف ليلة كلها من أن الملك شهريار عرف خيانة زوجته فأقسم أن يتزوج كل ليلة زوجة يقتلها في الصباح.وهكذا ذبحت شرايين المئات من النساء حتى خطب الملك شهرزاد ابنة الوزير التي استطاعت أن تلجم جموحه ببراعتها في القصص.وأن تستبقي نفسها ليلة بعد

أخرى إلى ألف ليلة وليلة ... حتى هذا العمود الأساسي للقصص الألف ليلية أليس رمزاً وصورة لسلطة الخليفة المطلقة على الناس، ولسلطة الأب المطلقة على الأسرة، ولسلطة الرجل المطلقة على المرأة، بجانب أنه صورة من احتيال الناس على تلك السلطة وعلى الحياة. ولقد كان الشرع الإسلامي يرفض هذا التسلط المأسوي ولكن ألم تكن الصورة الفعلية كذلك؟ ...

التاريخ هذه العملية المترفة التي يكتبها مثقفون لمثقفين لا تمر على مشاعر الشعوب ولا على ضمائرها العميقة. إنها لا تحكيها لا تأبه بها. القصص التي تحكي ما يجري سرباً في الأعماق الشعبية لا تكشف عنها عمليات المنطق التاريخي والتحليل العقلي. إنها تفلت من التاريخ لأنها تحتاج إلى الربط بالزمن، وإلى التسلسل في التركيب والتحليل المتوازنين. هناك في مكان آخر، بعيداً عن التاريخ، في المياه العميقة تتشكل القصص الشعبية التي تحكي حقيقة الناس متحررة من قيود الزمان. تقيم لنفسها وبنفسها تركيباً جدلياً آخر تودع فيه آلامها وأمانيها في منأى عن روابطها المكانية والزمانية التي تقيدها أو تكشف عنها.

ألف ليلة وليلة كانت وظيفتها أن تحكي ما أهمله التاريخ من نسيج القاع الحياتي للعصور الإسلامية التي كتبت فيها، أن تكمل ما أفلت من أيدي المؤرخين أو ما لم يروه أو لم يأبهوا به أبداً، رغم عيونهم المتفتحة على كل شيء. إنها ليست أساطير للتخريف ولكنها الصدق كله ... لمن يعرف أن يقرأ ما وراء السطور.

وألف ليلة ليست قصصاً كتبها أناس معروفون في فترة محددة. إنها حصاد عدة قرون لمئات المؤلفين. من كل عصر كانت تحمل جديداً ومن كل حادث كانت تغتني وتزيد. سبع حكايات فيها تروي قصة السندباد. مائتا

ليلة من لياليها تدور حول الحروب الصليبية . مائة وخمسين صفحة حكاية الشاطر حسن... والراوية هي دوماً شهرزاد تحكي للملك شهريار قصصاً ينسجها الخيال الشعبي لإرضاء ذاته . ولكل حكاية ، في قاعدتها ، جذور عميقة من التاريخ . لها هيكل عظمي منه وإن شطحت وتمردت على الزمان والمكان .

ولا تتصورن أبداً أن هذه الحكايات تحكي وقائع التاريخ . إنها تمشي في ضبابه وتأخذ منه ، وتعطيه على هواها . وقد تلغيه وغالباً ما تفعل لتقيم شبيهاً له ، أو تاريخاً مغايراً . ولكنها في كل الأحوال تقدم ما هو بين الفن والتاريخ من نبضات قلب الشعب ومن رؤاه العميقة ومواقفه من الأحداث . التاريخ كله قبل أن يكون تاريخاً كان تراثاً شعبياً من القصص انقطعت بجذوره قيود الزمان والمكان فهو عائم في الوجدان الشعبي الحر . فيه أصداء من الماضي تضخم بعضها وضمر بعضها الآخر أو مات أو تحول مع الأهواء. التراث الشعبي يفترس التاريخ ولا يحكيه.ولكنه يستبقي من الصور التي يريد على الشكل الذي يريد .

رحلات السندباد البحري السبع كانت تحكي قصة التاجر العباسي فيما بين القرنين الثاني والخامس للهجرة . والتاجر في تلك الفترة فترة التألق الإسلامي كان رمز الحضارة الإسلامية . كان سيد البحر وسيد القوافل وسيد المدينة . على ما يشتهي تجري الأمور.ولكن المخاطر التي كان يعانيها كانت تضرب في ماله وفي روحه معاً . وقد تبلور ذلك كله في السندباد الرمز . من هو ؟ تاجر يركب البحر البعيد مرة ثم أخرى ثم أخرى . ويلقى في كل شراع ما يلقى . فمرة تجتذب سفينته جبال المغنطيس.وأخرى يقع في جزيرة غير مأهولة إلا بالسحرة . ومرة ترميه العواصف في بلاد واق الواق الموهومة أو في بلاد ليس لأهلها سوى عين واحدة ... ويتزوج عروس البحر ... وكلها ليست

حقائق تاريخ ولا جغرافيا ولكنها رموز وتصورات للمخاطر التي كان يقاسيها تاجر الزنجبيل والدارسين والعاج والفلفل على الموج لينجو ببضاعته . ما لم يحكه التاريخ تحكيه الأسطورة من صور الرعب والهلع والموت على العواصف والزبد المزمجر مع اللانهايات .

وما حكاية دليلة المحتالة؟ إنها شخصية بغدادية تاريخية حقيقية من القرن الثالث الهجري اسمها دالة المحتالة ذكرها تاريخ المسعودي . ولكنها أضحت بالقصص التي أضيفت إليها والأصباغ والألوان بطلة شعبية تعبر الزمن ، وتعبِّر عن مقاومة الطبقات الشعبية للانسحاق في بغداد ومصر بعد أن نقلتها الرؤى القصصية إلى مصر . مجتمع الخاصة كان لا يحس بآلام الطبقة التحتية ولا بشقائها الزاحف في العظام وما وراء العظام . والمسحوقون كانوا يجدون في الاحتيال وسيلة لإقامة التوازن الذي يرضيهم ويقنعهم مع الطبقات العليا . لم يكن لديهم من سبيل لمقاومة الاستغلال بعد الشكوى إلى الله سوى ذلك . وكانت شخصية دليلة هي التعبير عن الانتقام ، هي عملية التعويض . هي الصورة الأخرى لواقع لم يسجل منه المؤرخون سوى قصص الخلفاء والكبراء ورنين الخلاخيل والدفوف . هي صوت القاع الأخرس عبر القرون .

وفي ألف ليلة حكاية أحمد الدنف وهو بدوره شخصية حقيقية مصرية من لصوص القرن التاسع الهجري ولكن حكايته تجري مع حسن شومان ومع دليلة المحتالة وابنتها زينب النصابة في بغداد زمن هارون الرشيد ، حيث ذاع صيت الأولين حتى أتى بهما الرشيد وخلع عليهما وجعل لكل منهما ألف دينار شهري وتحت يد كل منهما أربعون شاطراً لحفظ الأمن في المدينة وأعطى الدنف لقب مقدم . وكان مقدم بغداد السابق زوجاً لدليلة المحتالة فأثار كل ذلك حفيظتها . ولا سيما انقطاع الجامكية (أي الراتب) عنها فتأخذ في التحايل على أهل النظام والمسؤولين عن الأمن في نوع من التحدي والصراع .

كان أول « ملعوب » أو احتيال قامت به ضد كبير الجاويشية نفسه في

بغداد : ويدعى حسن شر الطريق إذ تزيت بزي فقير من الصوفية ولعبت على زوجته وعلى ابن تاجر ثري وعلى صباغ ومكاري وقد خدع بها كل منهم لمأرب في نفسه فاندفع وراءها في بلاهة فسلبتهم أموالهم وثيابهم وتركتهم عرايا في مواقف مخزية ! وانتقلت إلى « ملعوب » ثان وجهته إلى شاهبندر التجار وعزرا اليهودي أكبر جواهرية بغداد في وقت معاً ودبرت لهما حيلة جهنمية يطول تلخيصها وسلبت منهما الأموال . ثم قبض عليها والي بغداد وهو النائم دوماً فأمر بإعدامها ، لكنها استطاعت الإفلات بخداعها . وجدت بدلاً عنها بدوياً كان يتسكع في شوارع بغداد بحثاً عن الزلابية . ثم كانت الحيلة الرابعة على زوجة الوالي الذي كان لا يشبع من اقتناء الجواري والعبيد والقصف والعزف ، فباعتها دليلة جميع ضحاياها وقبضت الثمن وفرت . ويخرج الجميع بما فيهم الوالي وصاحب الشرطة في أزقة بغداد وشوارعها يبحثون عن دليلة فتدخل بينهم متنكرة ويكون هذا احتيالها الخامس الذي يهتك كرامة الوالي وصاحب الشرطة أمام ضحاياها جميعاً . ويشكو الوالي أمرها للرشيد الذي استدعى كبير شطاره أحمد الدنف يستشيره فيشير بالعفو عنها بحجة أنها ما عملت كل ذلك إلا لإظهار شطارتها واسترداد راتب زوجها . وحين يصلها منديل الأمان ترد المنهوبات إلى أصحابها وتمثل بين يدي الخليفة فيأمر بقطع رأسها مع ابنتها فتستنجد بأحمد الدنف وحسن شومان مقدمي الميمنة والميسرة اللذين يرجوان الرشيد فيعفو عنهما ...

والشاطر حسن وهو أيضاً وأيضاً شخصية تاريخية حقيقية من أواسط القرن الخامس له قصة تتصل بعد ذلك بهذه القصة ليقوم مع دليلة بمغامرات أخرى. وهكذا تتوالى القصص وما تنتهي قصة إلا لتبدأ أخرى ويتم من ذلك قصص لألف ليلة وليلة .

ولقد أزعم أن في هذه القصص من أجواء العصرين العباسي والمملوكي أضعاف ما في التاريخ الرسمي من نبضات قلب الشعب ونظرته إلى حياته وحياة

القصور. الحياة الاجتماعية الاقتصادية والسياسية لتلك العصور مسجلة بشكلها المباشر الساذج فيها. الباعة والمشترون. حديث التجار في الأسواق. حركة البضائع. ريا الفلفل والبهار. أحمال القوافل وعرق الحمالين. القلاؤون والصاغة وباعة السمك والخبازون كلهم على حالهم الأول. وفيهم المحتالون والمشعوذون والبهلوانات والمضحكون والمتسولون أهل الكدية والوعاظ وأهل الأسفار والأهوال والخليفة المسيطر اللاهي والوالي صاحب الدن والمزمار والسعاة من حوله بالمصالح، والغلمان من كل جنس ولون يسعون على الدروب، وصلصلة الحلي على الجواري، والسعي على الأسرجة في الليل... وتكاد تزحمك أنفاس ذلك العصر في الأسواق والعطر الممدود في القصور والأشرعة النواحة في العواصف والقوافل بهوادجها على رمال البيد وعلى امتداد البيد.

أليست ألف ليلة وليلة بذلك كله قطعة من التاريخ؟...

أم ستظل تعتبرها بعضاً من حكايات القصاصين لا تصلح حتى للعبث؟!.

مع بانشو فيا

هل سمعت بهذا الاسم بانشوفيا؟ إنه في المكسيك ضجة وعنفوان. أسطورة حديث تتراوح بين اللص الكبير والبطل الكبير. عدة مئات من الكتب صدرت حول مغامراته المرعبة وما تزال تصدر منذ كان حياً في أوائل هذا القرن حتى ما بعد مقتله سنة ١٩٢٣. بعضها من المكسيك يجعل منه البطل القومي وبعض من الأمريكيين يرده أسفل سافلين إلى مجرد قاطع طريق...

فما قصة هذا الرجل الأبيض ــ الأسود في وقت معاً؟

القصة كتبها، بين من كتب، الروائي المكسيكي مارتن لويس غوزمان (أو قزمان بالعربية إن شئت) في قرابة ألف صفحة بعنوان (مع بانشو فيا) ونشرها سنة ١٩٣٩ قبل عقد من السنين من موته. وكان مع زميله الروائي ماريانو آزويلا أروع قلمين وصفا الثورة المكسيكية التي استمرت طويلاً في مطالع هذا القرن. كانت هذه الثورة صراعاً داخلياً في المكسيك نشب بعد مصرع رئيسها كارانزا. وكانت أحداثاً مصيرية. وإذا كان هذا الكتاب غواصاً في أعماق النفس البشرية، فقد كان في الوقت نفسه قوي الصياغة، رغم توجهه المباشر إلى المواطن العادي مثيراً الاعتزاز القومي في ذاته، عازفاً على أوتار الأمجاد فيه.

ملحمة قزمان الروائية الطويلة هذه مع بانشوفيلا اعتبرها النقاد خير تاريخ للثورة وأبلغ تعبير عن أهدافها. وقزمان يسوقها على لسان بطلها كأنها

من ذكرياته. وليست بالطبع كذلك ولكنه أراد أن يبرز الصورة الحية المعبرة عنه بحيث تشمل الرواية بكاملها. تملأ كل إطارها. بعنفوانها ونشاطها، بالحسنات والسيئات... بانشوفيلا في الرواية حقيقة عارية عفوية: فروسيته تغلب ذكاءه، واندفاعه الطفولي أقرب إلى الانفعال الغريزي، وقوته الجسدية من قوة أبطال الأساطير اليونانية. وبين هذا وذاك حافظ قزمان على التركيز والتحليل والإثارة، والدقة والواقعية المجملة بألف لون ولون من الابتكار ولم يتردد لأول مرة في كتبه عن استخدام العبارات العامية الدارجة في لهجات الفلاحين في شمال المكسيك ليعطي ملحمته أقصى درجات الواقعية والتأثير...

وتخرج من الرواية، بعد طول قراءة، فإذا بانشو فيا صورة بارزة أمام عينيك يحرك الأحداث أو يشارك فيها أو يتحمل عقابيلها وبخاصة معارك سنة ١٩١١، التي فجرت اسمه كالأسهم النارية في المكسيك وفي العالم.

وبانشو فيا ليس في الأصل أكثر من فلاح وابن فلاح. أبوه كان أشبه بالعبد في المزرعة التي يعمل فيها في شمال شرقي المكسيك. وهذا الاسم بانشو ليس باسم الرجل. ولكنه اسم التدليع لفرانسيسكو وأما فيا فلقب أعطي له لأنه ذكّر الناس بثائر آخر في مطالع القرن التاسع عشر كان يحمل هذا الاسم ويتحدث عنه الناس بالأساطير... فزاد بانشو في أسطوريته أيضاً وأيضاً...

وتستطيع إن شئت أن تسمي قصة بانشو فيا بالملحمة الدامية فقد كانت كذلك تماماً. عواصف من الرصاص بين الأدغال، وتيه كهوف لا ترى الشمس أبداً، وصراعاً مع الصخور الجبلية. وخبباً في الليل على الطوي ورعباً ويأساً وتناثر أشلاء. وقَدْراً من الصوفية غير قليل! كل ذلك مع الجرأة الجامحة والذكاء الخارق اللذين رفعا بانشو فيا خلال سنوات من زعيم عصابة إلى قائد

جيش خاص ضخم يعد الآلاف المؤلفة دخل في حرب مكشوفة ضد مالكي المزارع الواسعة الذين يضطهدون صغار الفلاحين والمياومين . ثم ضد الجنرالات الحكام الذين يساندهم أصحاب المصانع والممولون الأمريكيون ، مستغلو آبار البترول على خليج المكسيك .

وحين اندلعت الثورة سنة ١٩١٠ جمع بانشو قواه إلى القوى الثورية التي تشكلت في الشمال من المكسيك . وأنزلت الهزائم بالجيوش الاتحادية حتى اضطر الدكتاتور بروفيليو دياز الذي حكم البلاد ثلاثين سنة أن يهرب إلى أوروبا . ولكن الرئيس الجديد فرانسيسكو ماديرو ، المواطن المثالي الذي كان يعجب به بانشو فيا قتل سنة ١٩١٣ ، قتلته زمرة الجنرال هويرتا الذي أعلن نفسه رئيساً للجمهورية الموقتة .

زحف بانشو عند ذلك ، وفي حرب لا رحمة فيها يذبح حاميات المدن حتى دخل مدينة مكسيكو . أباد كل قوى هويرتا في الشمال في حين كان ثائر آخر هو زاباتا يبيدها في الجنوب . حين دخل بانشو مكسيكو استقبل من الشعب كفاتح محرر . وذهب فزار قبر ماديرو . وسط رخام القصر الجمهوري وثرياته من الكريستال وسجاده وتزييناته في القاعة الملكية تعانق الثائران بانشو وزاباتا وتصورا صورة تذكارية .

وعاد بانشو إلى الشمال تاركاً الحكم لرئيس موقت اتفق مع الأمريكيين اسمه سوارس في حين كان يحمي المصالح الأمريكية وآبار البترول في الشمال جنرال آخر يسمى ألفارو أوبريغون .

وتمزقت المكسيك في حرب أهلية استمرت خمس سنوات كان السيد الأعلى فيها هو الفوضى ، كانت سكك الحديد خلالها تنسف ثم تبني ثم تنسف وتبنى . والضباط المنتصرون يعدمون أسراهم . والمشانيق يجفون في الشمس على طول البلاد وعرضها . حتى اتفق سوارس وأوبريغون على وضع حد لذلك .

وقرر بانشو فيا تحطيم هذا الاتفاق بمهاجمة أوبريغون حامي البترول لأمريكا وكانت مذبحة أغوا بريبتا البلد الذي يعتصم فيه جند أوبريغون. كان الطريق إليها يمر بمدينة حُصِّنت بالخنادق الملتوية والأسلاك الشائكة، واحتقر بانشو هذه الطريقة في الحرب فأمر فرسانه باقتحام الخنادق والأسلاك، في هجمة مرعبة لم تكن ترى فيها سوى سنابك الخيل الممزقة ترتفع في الهواء والفرسان يرتمون أشلاء بين قتيل وجريح. وخسر بانشو المعركة. ثم خسر معركة مماثلة. ولكنه جند الجند من جديد ليهاجم خصمه في مدينة أغوا بريبتا. كان الطريق إليها يمر عبر مضيق صخري طوله ثمانية كيلومترات ولكن عرضه لا يزيد على سبعة أو ثمانية أمتار. ومع أن قائد الحامية كان ساقياً في حانة وليس خريج مدرسة حربية فقد استطاع هزيمة بانشو أيضاً. نسف هجمة فرسانه الأولى بالألغام ثم أوقف الآخرين وراء الأسلاك الشائكة فحصدتهم الرشاشات. ولكن جيش بانشو كان جراراً لا ينتهي. كان ينبع نبعاً ويجتاز الجثث إلى المدينة. حين دخلوها لم يجدوا في شوارعها أحداً. ولكن الرصاص انهمر عليهم من السطوح والمنعطفات والنوافذ. وعبثاً حاولوا المقاومة. فقد امتلأت الأرض بالحيوانات النافقة وجثث القتلى منهم والجرحى.. وأبيد فرسان بانشو الذي رأى أن خصمه الحقيقي هو الولايات المتحدة ومصالحها البترولية على خليج المكسيك. فهاجم الولايات المتحدة! عبر الحدود في عدة مئات وفاجأ بلدة كولومبوس وحاميتها نائمة بعد أن أعدم ستة عشر أمريكياً في بلدة سانتا إيزابيل. ونجحت غزوته التي كانت أشبه بحرب الشوارع بين عصابتين.

وحاولت الولايات المتحدة الانتقام وأرسلت في آذار سنة ١٩١٦ جيشاً من عشرين ألفاً اخترق الحدود ومهمته القبض على بانشو الذي فر إلى الجبال ومارس ضد الأمريكان حرب العصابات... وفشلت الحملة تماماً. بعد سنتين نجد بانشو على رأس جيش من خمسة آلاف يطيعونه على الموت. صار اسمه شعبياً وقد فتح بعض المدن بسمعته قبل جنده. كان الشعب يعتبره ابنه

ويشكو إليه ظلاماته. كان يستقبله في كل مكان بتحية فيفا فيا... كان شديد القسوة مع أعدائه يستأصلهم عن آخرهم. إلا أنه كان شديد العطف مع جنوده. سمح لهم بعد فتح بلدة خوارس بالشرب والرقص حتى إذا أتى الصباح كانوا جميعاً سكارى وهاجمتهم القوات المرتبطة مع الأمريكيين فخرج بهم يقاتل وهو هارب!.. وطرده عملاء أمريكا من مناطق الحظر على البترول.

وجرت بعد ذلك تصفية الثوار وقتل حتى زاباتا زميل بانشوفيا في كمين نصب له ولم يبق غيره. وقرر أوبريغون مفاوضة هذا الثائر المتمرد. لمس أنه يحارب لمجرد الحرب دون أيديولوجية مسبقة ولا هدف واضح، ويحارب بقلب طفل وبإقدام من لا يحسب للموت حساباً أبداً. لهذا لم يستطع أحد هزيمته. قام بالوساطة بين الاثنين كاتب مكسيكي انتهى بمنح بانشو رتبة جنرال نظامي في الجيش وراتبه التقاعدي مع مزرعة واسعة مساحتها أكثر من عشرة آلاف هكتار... كان قد تعب من الحرب والجثث ومناظر الدماء...

أين انتهى بانشو؟

كان عائداً ذات يوم من سنة ١٩٢٣ (في العشرين من تموز) إلى مزرعة بسيارته حين فاجأه كمين بالرصاص الكثيف. وجدوا في جثته ١٢ رصاصة. وقتل جميع من معه... ولم يعرف القاتلون... ولم ينته بانشوفيا مع الموت إلى الهدوء الأبدي. في سنة ١٩٢٦ وجد قبره منبوشاً وقد قطع رأسه. ويقال أنه بيع إلى أحد الأمريكيين ممن يعنون بالأشياء التذكارية... لكنه لا يعلم مصيره الحقيقي أحد...

هذه القصة والملحمة كلها رواها الكاتب قزمان في إطار يجمع بين الأدب والتاريخ. أرأيت كيف يمكن أن يكون الفنان (الأدب والتاريخ) صنوين وكيف يصبح التاريخ أدباً والأدب تاريخاً؟

تاريخ المستقبل

آلدوس هكسلي الأديب الإنكليزي الذي مات منذ ٣٢ سنة . يقولون عنه أنه أديب أخطأ طريقه إلى الفلسفة أو فيلسوف صوفي أخطأ طريقه إلى الأدب . ولكنه في الواقع تنقل تدريجياً من الشعر إلى الرواية إلى البحث الأدبي إلى الفلسفة ونفذ تحت تأثير التيارات الفكرية والجمالية التي عاشها بكل كيانه من الشك اللامعقول واللاذع أحياناً إلى نوع من الصوفية التي تحوم دون أن ترد بين الروحية الهندية والبوذية . هذا التطور في تفكير الرجل قضى فيه أربعين سنة . وبعد أن كان إنتاجه في شبابه شعراً وروايات كديوان هزيمة الشباب سنة ١٩١٨ ثم رواية (المكسيكي الصغير) ورواية (في الطريق) في سنتي ٩٢٤ و ٩٢٥ انتهى في النهاية بكتابة الغاية والوسائل سنة ١٩٣٧ والفلسفة الخالدة سنة ١٩٤٦ . تأملاته في أحداث الحياة وأسرارها كانت تقوده . لكنه حتى في كتبه الأخيرة ظل شاعراً وصاحب شطحات في الخيال تملأ ما بين السماء والأرض بالرؤى وضباب الأحلام . كان يريد على الدوام أن يكون شديد الواقعية ولكن رياح بحاره الفكرية كانت تقوده لدى حيث لا تشتهي السفن !

حاول الدوس هكسلي سنة ١٩٣٢ أن يكتب تاريخ المستقبل . أن يهرب من الماضي ومن الحاضر إلى الآتي المجهول . لم يكن الكومبيوتر بعد قد عرف ولا انتشر ولا انقلبت صناعة المعلومات الإنسانية فهي أضعاف ما عرفته الإنسانية حتى عهده ، ولا كانت ثورة الهندسة الوراثية أكثر من جنين في ضمير الغيب . كان يتحسس الأمور بحدسه التأملي وحده . يتلمس المستقبل وتاريخ

المستقبل من خلال باصرته. ولم يحدد مدى نظره بمدى محدود من السنين كذلك الذي حدد قبل أربعين سنة شكل العالم سنة 1985 جورج أورويل وتهاوت تنبؤاته كعلب الكبريت أو فقاعات الصابون ولكنه أبعد عدة قرون... في المستقبل، ووقف عند سنة ٢٥٠٠! يتصور الإنسان بعدها ماذا يكون؟

والتنبؤ بالمستقبل لعبة يلعبها الكثيرون من الأدباء. أصحاب الخيال العلمي بخاصة. وكما تنبأ ليوناردو دافنشي قبل خمسة قرون بالطائرة والدبابة والغواصة ثم حلم بها جول فرن في القرن الماضي، وتحققت أحلامهما. كما حلم الناس — والعشاق معهم — بالوصول إلى القمر ثم وصلوا إليه وطوفوا حول النجوم أيضاً... كذلك يحلم الكثيرون ويكتبون عن الغد الآتي يريدون أن يستبقوا المستقبل ليكتبوا تاريخ المستقبل... وعلى الرغم من أنها لعبة فكرية عبثية أو على الأقل قفزة غير مأمونة في المجهول الغيبي الذي لا يعلمه إلا الله فإن الكثيرين يحاولونها من قبيل النزهة الفكرية أو التمنيات أو نهايات الخطوط التي تقوم عليها حياة يومهم العابر. على أن الصورة التي يخرجون بها ليست بكل تأكيد صورة الآتي ولا تاريخه ولكنها صورهم الفكرية... في جولاتها بأعماق الذات وإن ركبت الزمن إلى الغد البعيد.

آلدوس هكسلي دخل هذا الباب الضيق، أو على الأقل غامر فيه في رواية «أروع العوالم» التي نشرت سنة ١٩٣٢، طبيعي أن القصة خيالية ومن ذا الذي يكتب سلفاً تاريخ ما بعد خمسمائة سنة؟ وقد عرض فيها لرؤيا علمية مقبلة يصبح فيها الإنسان أشبه بالآلة المبرمجة على الكومبيوتر. جميع أعماله مكيفة ومخططة حسب قوانين ثابتة، منذ ولادته في قارورة المختبر — فقد ألغيت الأرحام — قبل زمن طويل — إلى ساعة وفاته... ولست تدري لماذا أبقى هكسلي على الموت فلم يلغه أيضاً أو يتجاوزه!..

ويسجل المؤلف تصوراته لما سوف تكون عليه مراحل تدريب الإنسان لتنظيم ارتكاساته وعاداته وتعليمه أثناء نومه وتجريده من الانفعالات وتسييره في خط مرسوم معين من العقلانية المطلقة . إنه عالم العقل هذا الذي يطلبه هو السيد في المستقبل. فلا حب يبرعم في الأعين ولا بارقة جمال تلفت النظر ولا عاطفة تشيل الإنسان وتحطه ، ولا فن ولا خيال . أرقام حسابية وأجهزة وآلات هي التي تتحكم بالبشر ليعيش في مجتمع مقسوم منطقياً إلى طبقات واضحة . . .

وإذا كان في هذا التصور نوع من الخيال الأفلاطوني في كتاب الجمهورية ، أو من الطوباوية في اليوتوبيا ، أو المدينة الفاضلة للفارابي . التي ترى إمكان سيطرة العقل على الإنسان وضرورة هذه السيطرة التي تجمده . تدخله عالم الصقيع . تلغي أحلى الجوانب فيه ، فإن هكسلي كان يقصد إلى شيء آخر . . . يكشف عنه في النهاية . إنه ينتقل بنا إلى عام ٢٥٠٠ لنرى نتيجة هذا النوع الإنساني العقلي المميز .

إذن فالعالم كله عالم متحد يخضع لسلطة فئة محددة أوليغاركية ، اتخذ فيها الناس من فورد رباً يعبدونه ، لأن مجتمعهم يقوم على المغالاة في الإنتاج والمغالاة في الاستهلاك. وقد سيطرت فيه التقانة (التكنية) حتى سادت كل مرافقه في سبيل تحقيق المجتمع المثالي (أروع العوالم) وأقامت الدولة شعارها المثلث على أنها : جماعية تماثلية استقرارية . . .

وقد استثمر القائمون على هذه الدولة وسائل العلم كلها لهذه الغاية . كل منجزات العلم موجهة لتطوير علم الوراثة . وعلى خلق مواطنين في قوارير المختبرات متكيفين سلفاً مع الطبقات الاجتماعية التي سوف يكونون منها . مؤهلين سلفاً للوظائف والمهن المعدة لهم . وهكذا ، من خلال درجات معينة من الأكسجة والأشعة والعمليات الفيزيائية ــ الكيماوية المعقدة أوجدوا

نماذج بشرية متفاوتة في الخلقة والأهلية: تُعْرَف، في تدرجها العملي، بالأحرف اليونانية أيضاً بيتا غاما دلتا.. وأنتجوا من خلال عملهم هذا كل مايحتاج إليه هذا المجتمع البشري، المصنوع صنعاً، من أدمغة عبقرية ومن عمال يدويين متخصصين بأحط المهمات... لكن الجميع يعيشون في جو من الرضى المطلق. عامل الوراثة والتكيف والتدريب المسبق قد هيأهم لهذه الأعمال، يقومون بها برغبة وحماسة أو لهذا الرضى بالقدر الذي أعد له خلال أطوار نموه.

حتى هنا ليس في الرواية مايثير سوى الخيال العلمي الجامح. ولكن المؤلف يقذف في هذا العالم الخيالي الآلي رجلاً من بقايا العصور القديمة ــ التي هي نحن ــ عُثر عليه في مجاهل أمريكا كما نعثر نحن اليوم على بقايا سكان أستراليا الأولين وبعض الهنود الحمر في الغابات أو في جزر أنداماں!

ويقف الرجل مشدوهاً أمام هذا العالم الذي يرى، وقفة أهل الكهف أمام المجتمع الذي رأوه بعد نوم ثلاثمائة سنة! وفي الوقت نفسه يقف سكان هذا العالم المصنوع مشدوهين أمام هذا الدخيل الغريب الذي يذكرهم بما قرأوا من التاريخ عن العصور الأولى. إنه يفكر على غير طريقتهم. وتجتاحه العواطف والانفعالات التي لا يعرفونها فتغير صفاءه. ويتكلم عن الحب والجمال والفن فلا يفهمون شيئاً من حديثه. ويتحدث عن الله الخالد الأبدي فينظر بعضهم إلى بعض في استغراب. ويذكر الدخيل أموراً لا تخطر في بال أحدهم إلا إذا أصابه خلل مدمر... وينتهي هذا التناقض بين هذا الإنسان الأثري الخارج من العصور الأولى وبين المجتمع الجديد بأن ينتحر تخلصاً من المأساة التي يعيشها في «أروع العالم»...

آلدوس هكسلي، منذ سبعين سنة، في هذه الرواية المدهشة في دقتها

العلمية وفي خيالها الخلاق وفي ذهابه حتى النهايات في تطور العلم والآلية التقنية والمعرفة المادية أراد أن يصور نهاية الغرب المادي في أقصى مداه ... أراد أن يصور الكارثة التي تنتهي إليها الخطوط الفكرية والعلمية القائمة . أراد أن يكتب تاريخ العالم الذي يعيشه فعلًياً من خلال دفعه حتى نهاياته في الغد .

المؤرخون الذين يؤرخون لهذا العصر لا يزيدون على أن يكتبوا تطوراته . وأن يسجلوا ما كان . لا يعرفون الغد ولا المصير . أما هكسلي الأديب فقد أرخ سلفاً في ما سوف يكون من خلال ما هو كائن .. لم يكتب المستقبل ولكن مصير الطريق المسدود ، ألم يثبت بذلك يا ترى أن الإنسان لا يكون إنساناً إلا إذا كان يتمتع باختياره الحر وتصرفه الخاص ؟

لا يكون إنساناً إلا إذا كان يتمتع بحريته ؟

آخر الحديث

كانت لنا حتى اليوم أحاديث بعد أحاديث لعلك يا قارئي لاحظت فيها كما لاحظت ماذا يعني الأدب للتاريخ وماذا يعني التاريخ للأديب، وسمعت توغل الأدب في التاريخ وتوغل التاريخ في الأدب. التاريخ حقيقة تريد أن تعود إلى الوجود... وأن تعود كما هي، والأدب تصورات تريد أن تشابه الحقيقة وتجهد لتجد لها مكاناً في الوجود... النازلون على النصوص التاريخية يستنطقونها والذين قد تنكسر أدمغتهم بحثاً في أعمالها، قد لا ينجحون في تصويرها نجاح تلك الفراشات الأدبية الملونة التي تقتطف لوناً من هنا ولوينة من هناك لتقدم خلفية الصورة التاريخية الكاملة أو ما نسميه بالأدب.

ولو امتد الوقت بنا لوجدنا المزيد والكثير من الأدب النابت في حقول التاريخ أو من التاريخ المختبىء في حقول الأدب. القفزة بين الفنين ليست أكثر من قفزة اعتبارية. هل قرأت مثلاً كتاب الأبطال؟ لقد كتبه فيلسوف إنكليزي هو توماس كارليل. توفي منذ قرن ونيف. وكتبه في ست محاضرات أدبية فكرية ما تزال تقرأ، استعرض فيها مجموعة من رجال الإنسانية، منهم الرسول العربي محمد بن عبد الله، صاحب الرؤيا التي ابتعثت نهضة العرب، وحررتهم من الجاهلية لتسمو بهم إلى المستوى الأرفع من الروحية. إن كارليل الأديب أخذ من التاريخ كل عدته ليقول إن القيم الروحية الخالدة تفوق كل ألوان الشك والجبن والكذب وأن الإيمان هو العامل الأساسي المسيطر في الحياة. فالتاريخ والطبيعة من صنع الله. وهي حقيقة قد تخفى على الناس ولكنها تلتمع أمام

أنظار الأبطال. إن ظهور البطل هو الذي يبدل التاريخ. وقد يختلف البطل المنتظر باختلاف الأحداث التاريخية والظواهر الاجتماعية فيكون رسولاً أو شاعراً أو مصلحاً دينياً أو سياسياً ولكنه في جوهره واحد... بطل يصنع التاريخ! ويغير من مسيرته.

وهل قرأت رواية الكاتب الروسي المعروف ليون تولستوي (الحرب والسلم) كان من طبقة النبلاء وعاش حياته الأولى للخمر والميسر وألوان الهوى ثم دخل الجيش يشارك في المعارك. جبال القوقاز والقرم أكلت من رجليه. ثم ترك الجيش إلى الرحلات يزور سويسرا وألمانيا وفرنسا. ثم حاول تحسين حياة الفلاحين في أملاكه... ثم تشكك في الكنيسة ورجالها وأفضى به القلق إلى الاعتكاف في أحد الأديرة... وكان خلال ذلك يكتب دون انقطاع كل هواجس نفسه والناس. يصوغها أدباً في (رواية الحرب والسلم) التي أضحت معلماً من معالم الأدب الروسي والعالمي، رسم لوحة كاملة بارعة للحياة الروسية خلال حروب نابليون الأولى. عرض مباهجها والمآسي والأفراح وتفاصيل العلاقات الاجتماعية كما لم يعرضها أي كتاب في التاريخ. فهي وثيقة وصورة عصر من خلال مغامرات اثنتين من الأسر الأرستقراطية الروسية: آل بولكونسكي، وآل روستوف. والكونت بزوخوف الذي يرمز به تولستوي إلى نفسه هو الشخصية الأساسية فيها وإن لم يظهر إلا قليلاً على الصفحات.

وتتلخص القصة بأن الأمير العجوز بولكونسكي، وهو جنرال سابق في عهد الامبراطورة كاترين كان رجلاً ذكياً، مادي التفكير، لكنه مستبد الرأي. عنيد. يعيش في أملاكه مع ابنته ماري التي بدأت الدخول في مرحلة العنوسة وإن احتفظت بعينيها الجميلتين وابتسامتها الحية. وقد تحملت الحياة مع أبيها العطوف المستبد بصبر عجيب... وتحقق حلمها يوم تزوجت من نقولا

روستوف . وكان لماري أخ هو الأمير أندره . كان أبرز ظهوراً في الأسرة وقد فقد زوجته ، ويختلف عن شقيقته في أنه قوي ذكي واع لتفوقه على الآخرين.ولكنه لا يجد ميداناً يظهر فيه تفوقه . وقد شهد بوصفه ضابطاً معركة أوسترلينز ضد نابليون وشهد الجرحى بالألوف والقتلى بالألوف والجثث المنتفخة الملطخة بالوحل وبقايا الخيل والمدافع في الميدان. وعاد من المعركة مجروحاً ... ويرى الصبية ناتاشا روستوف ويغرم بما تحمل من صفاء النفس والجمال والفتوة فيتزوجها ، لكنه ما يلبث أن يكتشف هواها لشاب أنيق ولكنه تافه النفس ، فيصاب بخيبة أمل ويعود إلى ساحة المعارك مع نابليون ليسقط صريعاً في معركة بورودينو ... جثة بين الجثث !

أما أسرة روستوف فسيدها إنسان بدائي الطباع ، يعيش خلي الذهن من أي قضية فكرية . إنه نبيل فحسب . وشجاع مرح المزاج . تزوج من ماري بولكونسكي فكان الزوج الممتاز الرحيم . أما أخته ناتاشا فهي أكثر الشخصيات شفافية وإنسانية في الرواية وفي الآداب العالمية . وجهلها بالحياة هو الذي أوقعها في حب ذلك التافه الذي ضحت بزوجها أندره من أجله . والتي عزمت على الانتحار حين عرفت حقيقته . لكن مصرع أخيها في معركة بورودينو يجعلها ترجع عن قرارها وتقف حياتها للعناية بأمها العجوز ...

هذه القصة الملحمة ساقها تولستوي ضمن الإطار التاريخي أو ساق الإطار التاريخي ضمنها فهي من وراء حوادث الأسرتين ، تكشف خطوط التاريخ الروسي كما لم يكشفه أي كاتب للتاريخ . اللمحات والإشارات الموزعة فيها حول روسيا في مطالع القرن الماضي تختزن وتقدم كل نوازع وأدوار الطبقة العليا في المجتمع الروسي قبل أن يضطرب ثم ينهار في الثورة البلشفية .

وقد يكمل هذه الرواية ، في جوها التاريخي ، على نحو من الأنحاء ، رواية أخرى اشتهرت جداً كتبها الكاتب الروسي المغضوب عليه : بوريس باسترناك

وشهدناها على الشاشة كما شهدنا الأولى : هي الدكتور جيفاكو . وباسترناك شاعر لكنه أصدر روايته هذه في إيطاليا لتعذر صدورها في بلاده.ونال عليها جائزة نوبل سنة ١٩٥٨ بعد أن انتشرت وترجمت وطبعت بمختلف اللغات وبمنتهى السرعة . أبرز فيها المؤلف لوحات معبرة عن الحياة الروسية في مختلف العهود الحاسمة ، قبل الحرب العالمية الأولى ، ثم في هذه الحرب ثم خلال الثورة والحرب الأهلية سنة ١٩١٧ وفي خلال الرواية يلتقي أبطالها عرضاً ثم يفترقون . وتتشابك العلائق بينهم لتتحول إلى روابط مصيرية . وتظهر شخصيات ثانوية تتصل بهؤلاء ثم تختفي كالشهب لتعمق الجو العام في الرواية ... أسهب باسترناك في عرض حياة جيفاكو المراهق ، وحياة زوجته تونيا غروميكو ثم أفاض في تصوير الثورة البلشفية سنة ١٩١٧ وما لفها من المآسي ، ومن صور المجاعة المدمرة إلى جانب كوارث الحرب قبلها . ودخل من ذلك إلى الحياة الشخصية للدكتور جيفاكو وهربه مع زوجته إلى سيبيريا . وبعد أن أقام أشهراً في منفاه الاختياري هارباً من عواصف الدماء أحس بالوحدة تعتصره وبآلام العطالة تفترس ذاته فأخذ يتردد على المكتبة العامة في المدينة القريبة لعله يملأ فراغه . وفيها التقى لاريسا أنتيبوفا التي كان يعرفها من قبل أثناء الحرب تقوم بتمريض الجرحى وتفتش عن زوجها الذي ضاعت أخباره بعد إحدى المعارك ... وانتهى إعجابه بها بالغرام.ولكنه غرام كان يتنازع في صدره مع حبه لزوجته التي لا يريد فراقها . وفيما هو عائد إلى قريته للاعتراف لزوجته بكل شيء يقبض عليه أنصار الثورة . يقتادونه إلى إحدى الغابات التي كانوا يتخذونها مقراً لمقاومة جنود الأميرال كولتشاك ، أو الروس البيض كما يسمونهم ولم يكن قائد هؤلاء سوى أنتيبوف ، الزوج المفقود .

ولم يطلع جيفاكو على هذه الحقيقة إلا بعد أشهر أقام خلالها مع رجال المقاومة يداويهم ويعنى بالجرحى . لكنه حين أطلق وعاد إلى بيته لم يجد لزوجته أثراً . وعاد إلى موسكو ليعرف أن السلطات الجديدة نفتها إلى خارج الحدود .

بعد أن اتهمت بمناصرة الروس البيض وعداء الثورة . فتوجهت إلى باريس . وتطوع جيفاكو في التطبيب ساعياً في الوقت نفسه للحصول على إذن بعودة زوجته إلى روسيا ، أو إذن يسمح له بأن يلحق بها في ديار الغربة . وفي أثناء ذلك يلتقي حباً جدياً مع ابنة البواب ماركل ! .. وحين تنجح الزوجة بالإذن في العودة تجد أن زوجها قد صرعته نوبة قلبية مفاجئة ! ..

هذه الرواية التي جلبت لصاحبها المجد بقدر ما جلبت من الكره وتضمنت من النقد اللاذع للنظام الشيوعي الروسي بقدر ما تضمنت من تصوير الحياة الروسية بين ما قبل الحرب العالمية الأولى وما بعدها إنما كانت صورة لمجموعات متعددة من الناس ومواقفهم وهم يجتازون مراحل حاسمة من التاريخ ويحافظون على ذلك على عواطفهم الخاصة من حب وخوف وألم وبطولة وحنان . وباختصار يحافظون على إنسانيتهم !

ألا يمكن أن نقول القول نفسه على ثلاثية نجيب محفوظ التي عرض التلفزيون حلقاتها مرات . ألم يضع الكاتب كل شيء فيها لإبراز الحياة المصرية العادية من خلال ثورة سنة ١٩١٩ أو إبراز هذه الثورة من خلال تلك الحياة ؟ إن أمثلة ارتباط الأدب والتاريخ لا تنتهي . الأدب والتاريخ صنوان . وما الفن فقط بمصدر من مصادر التعبير ولكنه أيضاً مصدر من مصادر المعرفة . ولقد يستخدم الأديب منه وسيلة انتقام أو إيضاح أو أداة دعوة أو هزء أو كشفاً لمنسي أو صراخاً لأيديولوجية أو تزييفاً لواقع ، أو تصويراً لعصر . وقد يركبه لإطلاق أسطورة أو للتنديد بحدث تاريخي أو للغوص في أعماقه حتى القاع ... ولكنه في كل الأحوال يحمل آثاراً كثيرة من التاريخ والواقع ... ما من ذلك مهرب .

وإذا كان الأدب طليقاً من الزمان والمكان وله أن يحلم ويركب الصور وينتقم ويزيف ويدعو أليس كذلك يفعل التاريخ بالفعل ؟

أليس الاثنان من صنع الإنسان بنفسه لنفسه ؟

كلمة أخيرة

التاريخ مهنتي . والأدب هواية عمري . عملي في التاريخ كان لأكل العيش ، أما الأدب فلسعادة العيش . لقد ظل يغريني أبداً . وأحسب أنه اشتق ، كحواء ، من ضلع التاريخ . على أني لا أعلق في كلمتي الأخيرة هذه إلا بأمرين : أولهما أن التاريخ هو قبل كل شيء متعة ثقافية . قصصه . ذكرياته . عواصفه تهبني ألف حياة أخرى وحياة . أعيش فيه القرون في مدى ساعات وأطل فيه على الجذور . هل عرفت سحر الجذور ؟

صحيح أنه في الإعداد له وفي معاملة المصادر والوثائق منهج واستقراء وتحليل وعلم كامل . ولكن ما إن يبدأ المؤرخ في كتابة التاريخ حتى يتحول العلم بسحر ساحر إلى فن أدبي كامل . إن جذوره في العلم ولكن ثماره في الأدب !

هذه واحدة ، أما الأخرى فهي أن صفحة من الأدب قد تغنيك ، في معرفة الأجواء التاريخية وعيشها عن مجلد من التاريخ . لا شيء كالأدب يختصر ألف صفحة من التاريخ في كلمات موحية . صفحة الأدب بدورها وثيقة تاريخية . أليس لذلك يا ترى تقرأ الحرب والسلم لتولستوي فتعرف عن روسيا القرن التاسع عشر ما لا يعرف المؤرخون من روحها . وتقرأ دروب الجوع فتفهم من الولايات المتحدة في مطالع هذا القرن ما لم يكتبه . قلم . وتقرأ إيكازا فتدرك من مأساة الهندي الأحمر ما لم يدرك وتقرأ كتاب الأغاني فتنداح في خاطرك من حياة الخاصة في العصر العباسي ما لا تجده في كتاب ؟

أم لك رأي آخر ؟

الفهرس

بين الأدب والتاريخ/شاكر مصطفى. ــ دمشق: دار طلاس، ١٩٩٥. ــ ١٧٣ص؛ ٢٠ سم. ــ (سلسلة أوراق من التاريخ؛ ١)

١ ــ ٨٠٩ م ص ط ب ٢ ــ العنوان ٣ ــ مصطفى ٤ ــ السلسلة

مكتبة الأسد

رقم الإيداع ــ ١٩٩٥/٦/٩٧٢ رقم الاصدار ٦٧١

رقم: ٢٥٠٨١
تاريخ: ١٩٩٥/٦/١٨



